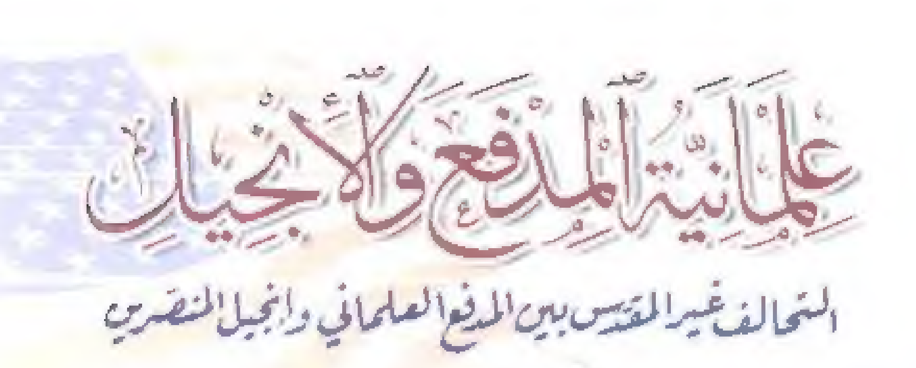
إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت (٢)



علمانية المدفع والإنجيل

التحالف غير المقدس بين المدفع العلماني والإنجيل المتنصر

المفكر الإسلامي
الدكتور محمد عمارة

مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع

علمانية المدفع والإنجيل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف : ٨]

إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت

(٢)

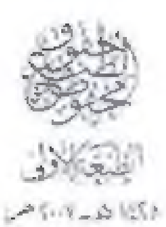
علمانية المدفع والإنجيل

التحالف غير المقدس بين المدفع العلماني والإنجيل التنصيري

المفكر الإسلامي

الدكتور محمد عمارة





الطبعة الأولى

١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٢٦٦٤ / ٢٥ / ١٢ / ٢٠٠٧م

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر - إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

عمارة ، محمد

علمانية المدفع والإنجيل : التحالف غير المقدس بين المدفع العلماني والإنجيل المنصرين / محمد عمارة . - الإسماعيلية : مكتبة الإمام البخاري ، ٢٠٠٧م .

٨٠ ص ؛ ٢٠ سم (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ؛ ٢١)

تدمك ٦ ٢ ٥٢ ٥٢٩١ ٩٧٧

١- الديانات المقارنة ٢٩١

أ - العنوان

مكتبة الإمام البخاري

للنشر والتوزيع

مصر - الإسماعيلية - ٤٦ شارع الجمهورية - الثلاثيني - بجوار الشرال

ت ٠٦٤٣٢٤٣٧٤٢ - جوال ٠١٢٣٦٧٦٧٩٩٧

مقدمة

في هذا الكتاب - الذي نقدم بين يديه - دراستان :

الدراسة الأولى : عن علمانية المدفع والإنجيل ..

والدراسة الثانية : عن العلمانية بين الغرب والإسلام

ولا نجد في التقديم لهذا الكتاب أفضل من نَشْر سطور من « التقرير الرسمي » الذي وضعته لجنة من كبار المفكرين وأساتذة الجامعات البريطانيين ، يرأسها البروفسور « جوردون كونواي » مستشار جامعة « ساكس » Sussx ، وكان من بين أعضائها أسقف لندن ، ورئيس تحرير صحيفة « نيو ستيتسمان » وأستاذ القانون بجامعة « سوث هامبتون » ، وممثلة عن هيئة الخدمة المدنية ، ورئيس المجلس اليهوديّ لمنع التفرقة العنصرية ، وعدد من كبار الأساتذة الجامعيين .

هذه اللجنة الرسمية التي تألفت لدراسة الموقف الغربيّ من الإسلام ... قد جاء في تقريرها الرسميّ :

« إنَّ الشائع في الثقافة الشعبية والثقافة السياسية في الغرب : أن الإسلام مصدر تهديد للدول والشعوب وللثقافة والحضارة الغربية .

وإن الفكرة السائدة : أن الإسلام تهديد رئيسيّ للسلام في العالم . وأن التعصب الإسلامي تحوّل إلى مصدر للاضطرابات والإرهاب وأنه يماثل تهديد النازية والفاشية للعالم في الثلاثينيات والتهديد

الشيوعيّ في الخمسينيات من القرن العشرين .

وإن الفكرة السائدة : أن الحرب مع الإسلام حتيمة . وأن المتعصبين الإسلاميين يزداد عددهم ، وأنهم يهدفون إلى تدمير الحضارة الغربية ، وهم سعداء لأن هذا هو « الجهاد » الذي يأمر به دينهم . وتتردد في الأدبيات الغربية عبارة : « إن قبائل أصحاب العمامات سوف تنتصر » نتيجة لرفض الغربيين الإنجاب وتزايد الحاجة إلى المهاجرين ، مما يهدد بأن تحيا الحضارة الغربية بعد ذلك بدماء غير أوربية ، وينتشر الإسلام في دول أوربا والولايات المتحدة . وقد بدأ العد التنازليّ بالسماح بتدريس القرآن في المدارس . إن الناس في الغرب يرفضون - لا شعوريًا - الانتقادات التي يوجهها المسلمون للمجتمعات الغربية وللقيم الأساسية لهذه الحضارة ، مثل الحرية ، والديمقراطية « والحداثة » وفصل الدين عن الدولة وعن السياسة . وإن تشبيه الإسلام بالشيطان ليس مقصورًا على الصحف الصغيرة ، ولكن الصحف الكبرى والكتب والمحاضرات الجامعية في الغرب تكرر عبارات الازدراء للإسلام .

وإنه من السذاجة الادعاء بعدم وجود صراع بين الغرب والإسلام اليوم ، كما كان في الماضي أيام الحروب الصليبية ، وأيام الفتوحات الإسلامية في إسبانيا ، ووصول الجيوش الإسلامية إلى

جنوب فرنسا ، وانتشار الإسلام في ألبانيا ويوغسلافيا بالغزو . وفي الوقت الحالي توجد صراعات المصالح ، ويوجد الصراع المتعلق بإسرائيل ، وبالسيطرة على البترول ، وهذه الصراعات التي تؤدي حتمًا إلى محاولة كل طرف إخضاع الآخر ، وبسببها أيضًا تتراكم المشاعر المعادية للإسلام ، ويزيد الأمر صعوبة وجود الصراع مع الإسلام في الشيشان وأفغانستان والهند ، ووجود توترات وصراعات سياسية داخلية في الدول الإسلامية ذاتها ، وينظر الغربيون إلى هذه الصراعات على أنها صراع بين الحداثة الغربية والجمود الذي يمثله الإسلام ، وحرص المسلمين على صبغ كل أمور حياتهم بالصبغة الدينية . إن العداء للإسلام حقيقة في الثقافة الغربية المعاصرة لا يمكن إنكارها أو تجاهلها » (١) .

تلك سطور من هذا التقرير الرسميّ الغربيّ .. الذي يعلن أن العداء الغربيّ للإسلام حقيقة لا يمكن إنكارها أو تجاهلها .. وأن الإسلام هو الشيطان !! وأن المعركة ليست فقط بسبب البترول وإسرائيل .. وإنما هي بين الحداثة الغربية . التي تريد فَصْل الدين الإسلامي عن الدولة والسياسة . أي تريد فرض العلمانية على الإسلام .. وعلى المسلمين « الذين يحرصون على صبغ كل أمور حياتهم بالصبغة الدينية » .

---

(١) [صحيفة الأهرام] ـ مقال الأستاذ رجب البنا : « تقرير عن الإسلام والغرب » عدد ١٨ ـ ١١ ـ ٢٠٠٧م .

هكذا .. وفي هذا التقرير الرسميّ ، اتخذ الغرب الإسلام عدوا .. وجعله أخطر من النازية والشيوعية .. متجاهلين أن هذا الغرب - الذي يشكو من الإسلام والمسلمين - يملأ بلاد الإسلام بجيوشه وقواعده العسكرية - وليس للمسلمين في الغرب « عسكري مرور » ! ويملأ المحيطات والبحار الإسلامية بالأساطيل الحربية - وليس للمسلمين في بحار الغرب « سفينة صيد » ! .. وشركاته المتعددة الجنسيات والعابرة للقارات تنهب ثروات المسلمين ! .. وكنائس الغرب تسير في ركاب جيوش الغزو لتنصير ضحاياه ، الذين يضطرون لبيع عقائدهم لقاء كسرة خبز أو جرعة دواء !! .

فإذا ما أراد المسلمون تحرير بلادهم .. والتماس عزتهم من دينهم .. جاء الغرب بالعلمانية التي تريد تحويل الإسلام إلى مجرد « طقوس .. وتمتمات » ، ليفرضها عليهم - بالمدفع والإنجيل - بدلاً من الإسلام الذي به يؤمنون . ذلك هو موقف الغرب تجاه الإسلام .. وهذه هي معركة العلمانية الغربية مع الإسلام .. آثرنا الإشارة إليها في التقديم لهذا الكتاب . سائلين المولى - سبحانه وتعالى - أن يجعل منه كتيبة من كتائب « الجهاد الفكريّ » في معركة الذود عن حياض الإسلام .. إنه - سبحانه - أفضل مسئول وأكرم مجيب .

دكتور

محمد عمارة

ذو الحجة ١٤٢٨ هـ

ديسمبر ٢٠٠٧ م

علمانية المدفع والإنجيل

كأس العلمانية المسموم !

كانت العلمانية الغربية، التي عزلت السماء عن الأرض، وأحلت «العقل والعلم والفلسفة» - أي منظومة التنوير الغربي - محلّ «الله والكنيسة واللاهوت»، وجعلت من الحداثة «دينًا وضعيًا» أحلته محلّ «الدين الإلهي»..

كانت هذه العلمانية بمثابة «كالكأس المسموم» التي تجرعته المسيحية الغربية، فتراجعت، وأصابها الإحباط والعجز والتهميش. وبشهادة أحد الخبراء الألمان، عالم الاجتماع «جوتفريد كونزلن»: «فلقد مثلت العلمانية تراجع السلطة المسيحية، وضياع أهميتها الدينية.. وتحول معتقدات المسيحية إلى مفاهيم دنيوية، والفصل النهائي بين المعتقدات الدينية والحقوق المدنية، وسيادة مبدأ: دين بلا سياسة، وسياسة بلا دين. لقد نبعت العلمانية من التنوير الغربي، وجاءت ثمرة لصراع العقل مع الدين، وانتصاره عليه، باعتباره مجرد أثر لحقبة من حقب التاريخ البشري، يتلاشى باطراد في مسار التطور الإنساني. ومن نتائج العلمانية: فقدان المسيحية لأهميتها فقدانًا كاملاً.. وزوال أهمية الدين كسلطة عامة لإضفاء الشرعية على القانون والنظام والسياسة والتربية والتعليم.. بل وزوال أهميته أيضًا

كقوة موجّهة فيما يتعلق بأسلوب الحياة الخاص للسواد الأعظم من الناس، وللحياة بشكل عام فسلطة الدولة، وليست الحقيقة، هي التي تصنع القانون وهي التي تمنح الحرية الدينية.

ولقد قدمت العلمانية الحداثة باعتبارها دينًا حلّ محلّ الدين المسيحي، يفهم الوجود بقوى دنيوية، هي العقل والعلم

لكن وبعد تلاشي المسيحية. سرعان ما عجزت العلمانية عن الإجابة على أسئلة الإنسان، التي كان الدين يقدّم لها الإجابات فالقناعات العقلية أصبحت مفتقرة إلى اليقين. وغدت الحداثة العلمانية غير واثقة من نفسها، بل وتفككت أنساقها العقلية والعلمية عدمية ما بعد الحداثة فدخلت الثقافة العلمانية في أزمة بعد أن دخلت الدين المسيحي في أزمة فالإنهاك الذي أصاب المسيحية أعقبه إعياء أصاب كل العصر العلماني الحديث. وتحققت نبوءة « نيتشة » [١٨٤٤ - ١٩٠٠ م] عن « إقرار التطور الثقافي الغربي لأناس يفقدون نجمهم الذي فوقهم، ويحيون حياة تافهة، ذات بعد واحد، لا يعرف الواحد منهم شيئًا خارج نطاقه ».

وبعبارة « ماكس فيبر » [١٨٦٤ ١٩٢٠ م] « لقد أصبح هناك أخصائيون لا روح لهم، وعلماء لا قلوب لهم ».

ولأن الاهتمام الإنساني بالدين لم يتلاش، بل تزايد.. وفي ظل انحسار المسيحية، انفتح باب أوربا لضروب من الروحيات وخليط من العقائد الدينية لا علاقة لها بالمسيحية ولا بالكنيسة، من التنجيم.. إلى عبادة القوى الخفية.. والخرافة.. والاعتقاد بالأشباح.. وطقوس الهنود الحمر.. وروحانيات الديانات الآسيوية.. والإسلام.. الذي أخذ يحقق نجاحًا متزايدًا في المجتمعات الغربية..

لقد أزالت العلمانية السيادة الثقافية للمسيحية عن أوربا.. ثم عجزت عن تحقيق سيادة دينها العلماني على الإنسان الأوربي، عندما أصبح معبدها العلمي عتيقًا!.. ففقد الناس الحلم الذي كانوا به يهتدون.. وعد الخلاص المسيحي.. ثم وعد الخلاص العلماني..!»[1]

تلك شهادة مفكر غربي [illegible]
[illegible]
والإعياء والتهميش.. فكان الفراغ الروحي الذي سقطت فيه الشعوب الأوربية.. وخاصة بعد إفلاس [illegible]

(١) جونتراند كوريليس [illegible]
[illegible] د. محمد عمارة [illegible] ١٩٩٩م.

حقائق وأرقام على أرض الواقع

وعلى أرض الواقع، وبالحقائق والأرقام

• فإن الذين يؤمنون -في أوربا- بوجود إله -مجرد وجود إله- لا يتعدون ١٤ % من الأوربيين!

• والذين يواظبون على حضور القداس بالكنيسة -مرة في الأسبوع- في فرنسا -بنت الكاثوليكية، وأكبر بلادها- أقل من ٥ % من السكان -أي أقل من ثلاثة ملايين فرنسي- أي أقل من نصف عدد المسلمين في فرنسا!..

• وفي ألمانيا، توقف القدّاس في ١٠٠ كنيسة من أصل ٣٥٠ كنيسة في أبرشية «إيسن» بسبب قلة الرواد، الأمر الذي زاد من عدد الكنائس المعروضة للبيع، وتحويلها إلى أغراض أخرى من مثل مطاعم وملاهي... وحتى المساجد... بسبب ارتفاع عدد المساجد في ألمانيا من ١٤١ إلى ١٨٧ في عامي سنة ٢٠٠٥ وسنة ٢٠٠٦ وحدهما! وبلغت نسبة المؤيدين للمساجد ١٠ % من جملة المؤيدين في السنوات العشر الأخيرة!

• وفي إنجلترا، أصبحت أكثر من ٦٠٠ كنيسة -أي ١٠ % من الكنائس الإنجليزية- رسميًّا باعتبارها زائدة عن الحاجة، ومعروضة للبيع، في الوقت الذي يتحدثون فيه عن أن عدد المسلمين الإنجليز

المترددين الذين سيتحوّلون في العقود القادمة على الأرجح
للإنجليكانيين.

ومع أن نسبة المسلمين في إنجلترا هي ٣% من السكان، فإن المواليد الذين أُطلق عليهم اسم «محمد» سنة ٢٠٠٦م – يأتون في المرتبة الثانية بعد اسم «جاك»(١).

• وفي إيطاليا، عُثر «مادونا» في إحدى الكنائس التاريخية، بعد تحويلها إلى مطعم وملهى، وبعد تحويل «المذبح» إلى [illegible].

• وفي جمهورية التشيك لا يذهب للقداس سوى ٣% من السكان، وبيع الكنائس التاريخية، لتتحول إلى مطاعم وملاهي، ومعروض للبيع منها ١٠٠٠ كنيسة، أي نصف عدد الكنائس في جمهورية التشيك.

• وفي سنة ٢٠٠٧م أُغلقت ١١٤,٠٠٠ في فرنسا وهولندا وألمانيا والجزء الشمالي من بلجيكا والنمسا(٢).

وهذا الواقع الذي تعيشه [illegible] المسيحية لأوربة هو

---

(١) صحيفة [الحياة] [illegible] في ٨ – ٥ – ٢٠٠٧م، [illegible] (أمريكا) في ٢٧ – ٢ – ٢٠٠٧م، ومجلة [illegible] نقلاً عن صحيفة [illegible] في ٢١ – ٤ – ٢٠٠٧م.

(٢) صحيفة [illegible] نقلاً عن صحيفة [الدعوة الإسلامية] [illegible] في ١ – ٨ – ٢٠٠٧م.

الذي جعل بابا الفاتيكان «بنديكتوس السادس عشر» يتحدث في كتابه «بلا جذور: الغرب، النسبية، المسيحية، الإسلام» سنة ٢٠٠٦م عن مخاوفه الثلاثة:

١- انقراض الأوربيين المسيحيين - وخاصة الألمان والإيطاليين والإسبان - بسبب تحلل الأسرة، وعدم الإنجاب، وزيادة نسبة الوفيات عن نسبة المواليد..

٢- وحلول الهجرات المسلمة - العربية والإفريقية - محل المسيحيين الأوربيين المنقرضين!.

٣- وأن تصبح أوربا «جزءاً من دار الإسلام» في القرن الواحد والعشرين![(١)].

الروح الصليبية حية ومتوقدة
في مواجهة الإسلام

هكذا صنعت العلمانية المسيحية في أوربا

لكن مؤسسات الهيمنة الاستعمارية الغربية، التي صدرت العلمانية

(١) جوزيف [illegible] بنديكتوس [illegible] بلا جذور: الغرب، النسبية، المسيحية، الإسلام [illegible] سنة ٢٠٠٦م [illegible] [illegible] [illegible] القاهرة سنة ٢٠٠٧م.

واللاهوت في بلادهم ، وحفظت دور الكنيسة في مجتمعاتهم ، فقد ظلت وفية للروح الصليبية في مواجهتها مع الإسلام والمسلمين واستمرت في استخدام الدين والكنيسة والتنصير سلاحاً في الزحف الإمبريالي على عالم الإسلام ! ..

فسلطات الاستعمار تعمل على علمنة المسلمين ، لكسر شوكة المقاومة الإسلامية للاستعمار الغربي ، ولتحويل الإسلام إلى روحانية فردية معزولة عن السياسة والاجتماع ، مع فتح الأبواب والميادين للكنائس الغربية لتنصير المسلمين ، وذلك لإتمام عملية التغريب والتبعية والإلحاق ... كي يتأبد النهب الاقتصادي والمسخ الحضاري اللذين هما الهدف الأول للاستعمار .

فبعد ما يقرب من أربعين عاماً على انتصار الثورة الفرنسية ذات التوجه العلماني اللاديني ... وفي ظل العلمانية الفرنسية وكنيستها ... ظلت الروح الصليبية حية ومتوقدة وحاقدة في مواجهة الإسلام وأمته وحضارته ، عند احتلال فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠ م .

ويحكي رفاعة الطهطاوي [١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ ١٨٠١ - ١٨٧٣ م] - وكان شاهد عيان يومئذ بباريس ... كيف « أن المطران الفرنسي الكبير ، لما سمع بأخذ الجزائر [أي احتلالها

سنة ١٨٣٠ م] ـ ودخل الملك « شارل العاشر » [١٧٥٧ - ١٨٣٦ م] الكنيسة يشكر الله على ذلك ـ [!!] جاء إليه المطران ليهنئه على هذه النصرة ، ومن جملة كلامه ـ ما معناه إنه يحمد الله على كون الملة المسيحية انتصرت نصرة عظيمة على الملة الإسلامية ، ومازالت كذلك » ![(١)]

فروح الصليبية حاضرة وحاكمة في مواجهة الإسلام وأمته وعالمه وهي توجه الدولة والكنيسة ، وفي ظل العلمانية ، كما كان الحال في العصور الأوربية الوسطى ، عندما تكون المواجهة مع الإسلام !

وبعد قرن من الزمان على احتلال فرنسا للجزائر احتفلت فرنسا العلمانية بمرور قرن على احتلالها لهذا البلد المسلم سنة ١٩٣٠ م ويومئذ لم تنس فرنسا روح الصليبية المعادية للجزائر المسلمة ، والحاقدة على إسلام الجزائريين فخطب أحد كبار الساسة الفرنسيين في مهرجانات هذه الاحتفالات ، فقال :

« إننا لن ننتصر على الجزائر ماداموا يقرءون القرآن ويتكلمون العربية . فيجب أن نزيل القرآن من وجودهم ، وأن نقتلع العربية من ألسنتهم » !

(١) رفاعة الطهطاوي [الأعمال الكاملة] ج ٢ ص ٢٢ دراسة وتحقيق د. محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م .

وخطب سياسي فرنسي فقال: «لا تظنوا أن هذه المهرجانات من أجل بلوغنا مائة سنة في هذا الوطن، فلقد أقام الرومان قبلنا فيه ثلاثة قرون، ومع ذلك خرجوا منه. ألا فلتعلموا أن مغزى هذه المهرجانات هو تشييع جنازة الإسلام بهذه الديار»!!

كما خطب أحد كرادلة الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية في هذه المهرجانات فقال: «إن عهد الهلال في الجزائر قد غبر، وإن عهد الصليب قد بدأ، وإنه سيستمر إلى الأبد، وإن علينا أن نجعل أرض الجزائر مهدًا لدولة مسيحية مضاءة أرجاؤها بنور مدنية منبع وحيها الإنجيل»[1].

ولقد فطن المسلمون الجزائريون في تجربتهم مع الاستعمار الفرنسي إلى «أن موقف البرجوازية الفرنسية هذا هو مدعاة للعجب، فإن هذه البرجوازية نفذت حكم الإعدام في القسس، وأحرقت الكنائس، وحاولت محو الدين المسيحي في فرنسا المسيحية، أما في الجزائر، فقد اتخذت مسلكًا مخالفًا، فحولت المساجد إلى كنائس ومخادع المسيحية، واستخدمت أموال المسلمين لتنصيرهم! وهكذا أحييت الروح الصليبية عندما

(١) نقلًا عن الشيخ محمد البشير الإبراهيمي [سلسلة من أعلام الإحياء الإسلامي] ص ١٢٤، ١٢٥ طبعة مكتبة الشروق الدولية بالقاهرة سنة ٢٠٠٦م.

رفعت علم المسيحية ضد الإسلام في الوقت الذي ظلت تسخر فيه من المسيحية والإسلام في آن واحد.» [1]

والعلمانية الأوربية [illegible] المسيحية في بلادها [illegible] لكنها استخدمتها في مطاردة الإسلام [illegible] الإسلامي على بلاد المسلمين [2]

صور من التحالف [illegible] العلماني والتحويل التنصيري

* [illegible] العربي [illegible] الأوربية [illegible] المسيحية [illegible] [illegible] قواعد [illegible] عسكرية [illegible] المسلمين [illegible] دعمًا للاحتلال، [illegible]

صنع ذلك بواسطة إرساليات التنصير النصراني ومدارسها وجامعاتها ومؤسساتها [illegible] الإعلامية في المشرق العربي [illegible] التي [illegible] في خدمة [illegible] في كل وقت [illegible]

---

(١) د. محمد عمارة [illegible]

[illegible] ٢٠٠٦م

تمحي [illegible] من خريطة مسيحية أوربا (١).

* وعندما عقدت الكنائس الأمريكية مؤتمرها التنصيري الشهير مؤتمر كولورادو في مايو سنة ١٩٧٨ م وضعت فيه خطوط تنصيرية جديدة على الإسلام، فقد جاء في وثائق هذا المؤتمر

« إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي تناقض مصادره الأصلية أسس النصرانية .. والنظام الإسلامي هو أكثر النظم الدينية المتناسقة اجتماعيًا وسياسيًا .. ونحن بحاجة إلى مئات المراكز لفهم الإسلام، وللاختراق في صدق ودهاء [ ] ولذلك، لا يوجد لدينا أمر أكثر أهمية وأولوية من موضوع تنصير المسلمين ولذلك، فعلى مديري إرساليات أمريكا الشمالية وقادة المنصرين الآخرين أن يكتشفوا ويوطدوا أساليب جديدة للتعاون والمشاركة مع كنائس العالم الثالث وعملها المنصر للوصول إلى المسلمين. لقد وجدنا العزم على العمل بالاعتماد المتبادل مع كل النصارى والكنائس الموجودة في العالم الإسلامي. إن نصارى البروتستانت في الشرق الأوسط وأفريقيا وآسيا –

---

(١) [illegible] ١٨٩٨ [illegible] الإسلام [illegible] القاهرة سنة ٢٠٠٧ م

مهمكون بصورة عميقة في عملية تنصير المسلمين. ويجب أن
تخرج الكنائس القومية من عزلتها، وتقتحم بعزم جديد ثقافات
ومجتمعات المسلمين الذين تسعى إلى تنصيرهم. وعلى
المواطنين النصارى في البلدان الإسلامية وإرساليات التنصير
الأجنبية العمل معًا. بروح تامة. من أجل الاعتماد المتبادل
والتعاون المشترك لتنصير المسلمين. إذ يجب أن يتم كسب
المسلمين عن طريق منصرين مقبولين من داخل مجتمعاتهم.
ويفضل النصارى العرب في عملية التنصير. إن تنصير هذه البلاد
سيتم من خلال النصارى المنتمين إلى الكنائس المحلية، ويتم
ذلك بعد تكوين جالية محلية نصرانية قوية »[1]

* وفي سبيل خطة العالم الإسلامي، سعيد هذا مجتمع
تنصير المسلمين، تقرب هذه الكنائس وقفت « المكتبة
الصليبية »، عندما عقدت عن الصمع بكورث، لاستخدام المعونات
والمساعدات لتنصير الفقراء والمحتاجين المسلمين!!
فالاستعمار الغربي وحكوماته العلمانية ينهب ثروات

---

(١) [التنصير - خطة لغزو العالم الإسلامي] الترجمة العربية لوثائق مؤتمر كولورادو ص [illegible]
٤٥٢، ٢٢، ٣٣، ٧٨٨، ٧٩٠، ٥٣، [illegible] ٨٤٥
طبعة مركز دراسات العالم الإسلامي [illegible] م

المسلمين ، ويحوّل جماهيرهم إلى فقراء ومعدمين ... وكنائس
الدول الاستعمارية - تحت حماية المدافع الاستعمارية - تستخدم
كسرة الخبز وجرعة الدواء لتحويل هؤلاء الفقراء المعدمين عن دين
الإسلام إلى النصرانية الغربية !

وهكذا تتوّج التحالف غير المقدس بين « المد العلماني »
مع « الزحف التنصيري » !

نعم ... نصرت وعقدت هذه الكنائس بهذه « المسكينية ... »
فقالت ... في وثائق مؤتمر « كولورادو »

« لكي يكون هناك تحوّل إلى النصرانية ، فلابدّ من وجود أزمات
ومشاكل وعوز من تدفع الناس - أفرادًا وجماعات - خارج حالة
التوازن التي اعتادوها ! ... وقد تأتي هذه الأمور على شكل عوامل
طبيعية ، كالفقر والمرض والكوارث والحروب ، وقد تكون
معنوية ، كالتفرقة العنصرية ، أو الوضع الاجتماعي المتدني ...
وفي غياب مثل هذه الأوضاع المهيئة فلن تكون هناك تحولات
كبيرة إلى النصرانية ! ... ولذلك ، فإن تقديم العون لذوي الحاجة
قد أصبح أمرًا مهمًا في عملية التنصير !! ... وإن إحدى معجزات
عصرنا ، أن احتياجات كثير من المجتمعات الإسلامية قد بدلت
موقف حكوماتها التي كانت تناهض العمل التنصيري ، فأصبحت

أكثر تقبلاً للنصارى»[١]

«فالمدفع» العلماني الاستعماري الغربي يجتاح مواقع الثروة في عالم الإسلام، لينهبها.. وفي سبيل ذلك يصنع الكوارث التي تطحن الشعوب الإسلامية.. ثم يفتح الأبواب تحت قهر المدافع لإرساليات التنصير كي تقدم العون والمساعدة باسم يسوع المسيح، كي يبيع الفقراء والمعدمون إسلامهم لقاء كسرة خبز أو جرعة دواء!!

* ولقد وضع هذا المخطط.. وهذه «الميكيافيلية» الصليبية في الممارسة والتطبيق

• فهذه الكنائس الأمريكية، التي تتحكم في القوة الأمريكية الغربية والعدوانية.. بواسطة «اليمين المسيحي» و«اليمين الديني» و«المحافظين الجدد».. قد استثمرت [illegible] الكويت المحررة التي أقامت في تلك البلاد «قاعدة دينية تنصيرية» إلى جوار القواعد العسكرية الأمريكية التي أقامتها فيها منذ سنة ١٩٤٥ م.

وتحدثت عن هذه «القاعدة التنصيرية» وهي «كنيسة [illegible]» [illegible] الدينية الأمريكية [illegible] في [illegible].

---

(١) [illegible] ص ٤٢، ٨٣، [illegible]

ولعنة الإسلامي على وجه الخصوص؛ حتى إن عدد المنصرين الكوريين قد بلغ المرتبة الثانية للمنصرين الأمريكان على النطاق العالمي!! . وبقيادة الإمبريالية الأمريكية - المفترض أنها علمانية - تزامل عمل المنصرين الكوريين والجنود الكوريين مع عمل المنصرين الأمريكيين والجنود الأمريكيين حيثما وجد النفوذ الأمريكي في بلاد المسلمين من العراق إلى أفغانستان، وحتى في مناطق النفوذ والهيمنة الأمريكية.

ولإيضاح هذه الحقيقة - التي يجهلها أو يتجاهلها الكثيرون - فإن هذا التقرير الكوري للكنائس الأمريكية - كنيسة سايمن Church Saemmul - لم تقف عند تبشير الكوريين وتحويلهم عن دياناتهم البوذية والكونفوشية فحسب، وإنما شاركت مع أمريكا في التبشير بالعالم. فأرسلت ٠٠٠, ١٦ مُنَصِّر كوري إلى الدول الأجنبية، وكان نصيب البلاد الإسلامية ٢٥ % من هؤلاء المنصرين الكوريين[1].

ولقد كان نصيب أفغانستان ملحوظًا في هذا الجهد التنصيري المدعوم أمريكيًا. فالغزو الأطلسي لأفغانستان سنة ٢٠٠١م قد قضى على مقومات الأمن المدني والصحي للشعب الأفغاني، ولم يبق في تلك البلاد سوى زراعة

المحدودات - التي تضاعفت مساحتها ثلاث مرات !

وفي ظلّ هذا الفقر المدقع - أضحى ضعفاء [illegible] فريسة سهلة [illegible] التنصير، تحمل « الإنجيل » مع كسرة الخبز وجرعة الدواء.

ومشهورة تلك الأزمة التي تفجرت [illegible] في ١٩ يوليو سنة ٢٠٠٧ م، عندما أسرت [illegible] حركة طالبان « ٢٣ مُنصِّرًا كوريًا كانوا يعملون على تنصير المسلمين في أفغانستان [illegible] في شعب [illegible] ويحملون [illegible] يقولون « إني الآن أفهم حب يسوع هالليلويا إني الآن [illegible] - [وكان الإسلام هو القذارة] وقد أصبحت شخصًا آخر. آمين » !.

وقد قتلت حركة طالبان [illegible] هؤلاء المنصرين [illegible] « Pastor Hyun Kaac » في ٢٦ يوليو سنة ٢٠٠٧م

ثم أفرجت عن [illegible] كل [illegible]

وقد تعهدت الحكومة الكورية [illegible] في ٢١ يوليو سنة ٢٠٠٧م [illegible] المنصرين إلى أفغانستان، وبسحب جنودها من هناك مع نهاية سنة ٢٠٠٧ م. كما [illegible] الحكومة الأفغانية [illegible] هؤلاء المنصرين الكوريين [illegible] على أفغانستان في [illegible] الأمريكية [illegible]

وقد امتد هذا النشاط الكوري التنصيري إلى بلاد إسلامية كثيرة، منها الصومال والسودان وباكستان وتركيا والشيشان وداغستان... وقد قامت الحكومة الروسية بطرد المنصّر الكوري «[illegible]» من الشيشان وداغستان سنة ٢٠٠٣م..(١).

بل لقد أسست هذه الكنيسة الكورية - كنيسة سابمل - قرابة سبعين «مستوصفًا» في مصر - بلد الأزهر الشريف - وتعمل في عشر محافظات مصرية، تحت ستار العمل في مجالات «التكوين المهني والكهرباء والكمبيوتر والتمريض وتعليم اللغة الكورية» للمسلمين المصريين(٢).

وقد امتد نشاط هؤلاء المنصّرين الكوريين إلى العراق في ظل الاحتلال الأمريكي سنة ٢٠٠٣م، وإلى مواطن تجمعات اللاجئين العراقيين في الأردن وغيرها... حتى لقد هاجم نشاطهم هذا المرجع الشيعي في العراق «[illegible]» في ١٩ مايو سنة ٢٠٠٥م، قائلًا: «إنهم أتوا لتحويل مسلمين فقراء عن دينهم باستخدام بريق المال والسيارات الفارهة».

---

(١) د. محمد [illegible] صحيفة الأهرام القاهرة في [illegible] م.

(٢) المرجع السابق في ١٠ - ٩ - ٢٠٠٧م

وأشار إلى ما يحدثون بنشاطهم التنصيري من « تدمير التواصل الاجتماعي والديني بين مكونات الشعب العراقي »

ولقد أسرت المقاومة [illegible] عددا من هؤلاء المنصرين [illegible] في [illegible] سنة ٢٠٠٤م، [illegible] في [illegible] سنة ٢٠٠٤م.

* أما الدور التنصيري الأمريكي المباشر في العراق فحدث عنه ولا حرج!

فعندما قادت [illegible] في مارس سنة ٢٠٠٣م، [illegible] « الأمريكي [illegible] » [illegible] والعشرون [illegible] الأمريكية [illegible]

وفي سبيل ذلك وضعت [illegible] الأمريكية مؤسسات [illegible] الإسلام [illegible]

أوصاف « الأصولية » و « الإرهاب » و « الأشرار ».

وبعد [illegible] « نيوزويك » الأمريكية [illegible] الحرب على العراق. عدد ١١-٣-٢٠٠٣م - أن الرئيس الأمريكي « بوش » [illegible] هي حرب

[illegible]

عادلة، وفق المفهوم المسيحي. كما شرحه القديس أغسطين [٣٥٤ ـ ٤٧٠ م] في القرن الرابع، وكما قننه كل من القديس توما الإكويني [١٢٢٥ ـ ١٢٧٤ م] ومارتن لوثر [١٤٨٣ ـ ١٥٤٦ م] وآخرون! وإنه ـ أي بوش ـ قد تبنى كلمة «الأشرار» التي أطلقها على العراق وأفغانستان وإيران ـ وكل قوى الممانعة الإسلامية ـ من سفر المزامير!.. وإنه يبدأ عمله صباح كل يوم بالمطالعة ـ بناء على توصية القس «بيلي جراهام» في كتاب القس «أوزوالد شامبرز» ـ الذي مات سنة ١٩١٧م وهو يعظ الجنود البريطانيين والأستراليين بالزحف على القدس لانتزاعها من أيدي المسلمين!

كما نشرت المجلة ـ الأمريكية ـ في ذات العدد ـ نبأ «مؤتمر المعمدانيين الجنوبيين» وقساوسة مسيحيين من أمثال «جيري فالويل» و«فرانكلين جراهام» ـ الزحف نحو العراق، وتنصير المسلمين فيه!.. وبعبارة «نيوزويك»: «فإن هؤلاء المبشرين الإنجيليين لا يخفون رغبتهم في تحويل المسلمين إلى المسيحية، حتى ـ لا بل لاسيما ـ في بغداد»(١).

ولقد نشرت «نيويورك تايمز» في عددي ٥، ٦ ـ ٤ ـ ٢٠٠٣م

---

(١) [نيوزويك] في ١١ ـ ٣ ـ ٢٠٠٣م.

ـ أي إبان الغزو للعراق ـ أن جيشا من المنصرين الأمريكيين قد صحب الجيش الأمريكي الزاحف على العراق من الكويت وأن « من بين تلك الجماعات التنصيرية المصاحبة للجيش الأمريكي في حربه على العراق منصرين تابعين للكنيسة المعمدانية والكنيسة المنهجية .. حيث ذكر ممثلوا الكنيسة المعمدانية أنه منذ بدأت الحرب الأمريكية على العراق تطوع نحو ٨٠٠ منصّر من خلال مجلسها التنصيري لتقديم الدعم الروحي والمادي لشعب العراقي باسم يسوع المسيح ! .. ومن بين هؤلاء المنصرين « فرانكلين جراهام » - الذي دشّن حفل تنصيب « بوش » رئيسا لأمريكا - والذي وصف الإسلام بالشر والعنف والإرهاب ! .. ووالده « بيلي جراهام » الذي وصف نبي الإسلام بأنه إرهابي ووثني !

ولقد أعلن « فرانكلين جراهام » ـ وهو بالكويت ، يهم بدخول العراق ، في ركاب الجيش الأمريكي .. « لقد جئت إلى هنا تمهيدا لدخول العراق ، فرغم أن نسبة المسلمين في العراق تتشكل ٩٧ ٪ من إجمالي تعداد السكان ، إلا أننا يجب ألا ننسى أن المسيحية سبقت الإسلام في دخول العراق ! .. إنني هنا لدعم مسيحيي العراق ! .. وعندما نقدم الدواء أو الطعام لغير المسيحيين

فربما لا نفعل ذلك باسمنا ، ولكننا نفعل ذلك باسم ابن الرب !!

ولقد تحدثت « نيويورك تايمز » عدد ٦ ـ ٤ ـ ٢٠٠٣ م عن العقيدة المسيحية الصهيونية الموجهة لأركان الإدارة الأمريكية ـ التي شنت الحرب على العراق ـ والتي أعلنت « الحملة الصليبية » ضد الإسلام في ١٦ ـ ٩ ـ ٢٠٠١ م ـ فقالت الصحيفة الأمريكية : « إن السيد « كولن باول » يصف نفسه بأنه عاشق للطقوس الكنسية المسيحية الصهيونية ، والسيدة « كونداليزا رايس » كان والدها قسيسًا بإحدى كنائس المسيحية الصهيونية بولاية ألاباما . و « ديك تشيني » يؤمن بنفس المنهج التبشيري للرئيس جورج بوش ، والقائم على فكرة أن الطريق إلى التبشير يبدأ بالمدفع والإنجيل ! ونفس الأمر ينطبق على وزير الدفاع « دونالد رامسفيلد » في حين تؤثر ديانة « بول وولفويتز » ـ اليهودية ـ على توجيهاته السياسية ، مما دفع بعض المراقبين للقول : « إن السياسة الخارجية للإدارة الأمريكية الحالية تتم صياغتها والتعبير عنها طبقًا للمعتقدات التبشيرية ، وتقسيم العالم إلى مؤمنين ووثنيين » !! (١)

---

(١) [نيويورك تايمز] في ٦ ـ ٤ ـ ٢٠٠٣ م ـ [illegible]
ـ في ١٤ ـ ٤ ـ ٢٠٠٣ م .

هكذا استخدمت ... واستخدم ... العلمانية الغربية « المدفع والإنجيل » في مواجهة الإسلام والمسلمين !

الغرب هو الذي يعلن الحرب
على الإسلام وحضارته

إنّ الغرب، الذي زرع ويزرع العلمانية في **المجتمعات** الإسلامية، بواسطة سلطات الاستعمار المباشر، وبواسطة المتغربين العلمانيين من أبناء جلدتنا، الذين صنعهم على عينه في بلادنا، هو الذي أعلن الحرب على الإسلام، عندما جعله العدو « الخطر الأخضر » الذي أحله محل « الخطر الشيوعي الأحمر »، فور سقوط الشيوعية وأحزابها وحكوماتها أوائل سنة ١٩٩١ م، لا لشيء إلا لاستعصاء الإسلام على العلمنة، ومن ثمّ استعصائه على الذوبان في النموذج الحضاري الغربي، ورفضه - من ثمّ - الاستسلام للإمبريالية الغربية ..

لقد أعلن هذا الغرب الإمبريالي الحرب على الإسلام وأمته وحضارته وعالمه كي يجرعه « كأس العلمانية المسموم »، التي همشت المسيحية الغربية وأصابتها بالهزال والإعياء والإفلاس

وعن هذه الحقيقة كتبت مجلة [شئون دولية] الصادرة في « كمبردج » بلندن - عدد مايو سنة ١٩٩١ م تقول: « **لقد شعر**

الكثيرون بالحاجة إلى اكتشاف تهديد يحلّ محلّ التهديد السوفيتي وبالنسبة لهذا الغرض فإن الإسلام جاهز في المتناول ! .

إن أوربيين كثيرين يتساءلون عما إذا كان من الممكن جعل الإسلام يقبل بقواعد المجتمع العلماني مثلما فعلت المسيحية بعد صراعات كثيرة وطويلة ومؤلمة ؟ أم أن رسوخ الإسلام في المجال السياسي والاجتماعي يجعله يرفض القبول بالمبدأ المسيحي ـ الغربي الذي يُميِّزُ بين ما لله وما لقيصر ، وبما لا يسمح لمعتنقيه أن يصبحوا مواطنين خاضعين للقانون بصورة يُعَوَّل عليها في ديمقراطية علمانية ؟

إن النظرية التي يعتنقها علماء الاجتماع ، والتي تقول إن المجتمع الصناعي والعلمي الحديث يقوض الإيمان الديني ، صالحة على العموم .. لقد تناقص التأثير السياسي والسيكلوجي للدين . عمليًا في كل المجتمعات ، وبدرجات متفاوتة ، وأشكال مختلفة لكن عالم الإسلام استثناء مدهش وتام حدًّا من هذا ! فلم تتم أي علمنة في عالم الإسلام

إنَّ سيطرة الإسلام على المؤمنين به هي سيطرة قوية ، هي بطريقة ما أقوى الآن عما كانت من مائة سنة مضت إن الإسلام مقاوم للعلمنة نوعًا ما . والأمر المدهش هو أن هذا يظل صحيحا

في ظل مجموعة مختلفة من النظم السياسية ، فهو صحيح في ظل نظم راديكالية (ثورية) اجتماعيًا ، وهو صحيح أيضًا في ظل النظم التقليدية ... وهو صحيح بالنسبة إلى النظم التي تقف بين النوعين ..

إنّ وجود تقاليد محلية للإسلام ... قد مكّن العالم الإسلامي من أن يفلت من المعضلة التي أرّقت مجتمعات أخرى أثار الغرب فيها الاضطراب والإذلال ... معضلة إضفاء الطابع المثالي على الغرب ومحاكاته ... لقد امتلك الإسلام مقومات الإصلاح الذاتي ، باسم الإيمان المحلي ، وذلك هو التفسير الأساسي لمقاومة الإسلام المرموقة لاتجاه العلمنة ..

إنّ الإسلام ، من بين الثقافات الموجودة في الجنوب ، هو الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة ، ليس لسبب سوى أنه الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحدٍّ فعلي وحقيقي لمجتمعات يسودها مذهب اللاأدرية وفتور الهمة واللامبالاة ، وهي آفات من شأنها أن تؤدي إلى هلاك تلك المجتمعات ماديًا ، فضلاً عن هلاكها المعنوي .. » (١) .

وعن ذات الحقيقة ... حقيقة استعصاء الإسلام على العلمنة و [illegible]

(١) مجلة [illegible]

النموذج الغربي . وعداء الغرب للإسلام بسبب هذه الممانعة الفريدة والأكيدة . يقول المفكر الاستراتيجي الأمريكي « فوكوياما » « إن الحداثة التي تمثلها أمريكا وغيرها من الديمقراطيات المتطورة ، ستبقى القوة المسيطرة في السياسة الدولية . والمؤسسات التي تجسد مبادئ الغرب الأساسية ستستمر في الانتشار عبر العالم وهذه القيم والمؤسسات تلقى قبولاً لدى الكثير من شعوب العالم غير الغربية ، إن لم نقل جميعها . ولكن السؤال هو - هل هناك ثقافات أو مناطق في العالم ستقاوم ، أو تثبت أنها منيعة على عملية التحديث - بهذا المعنى الأمريكي والغربي ؟ »

ثم يجيب « فوكوياما » على هذا السؤال الذي طرحه فيقول :

« إن الإسلام هو الحضارة الرئيسية الوحيدة في العالم التي يمكن الجدال بأن لديها بعض المشاكل الأساسية مع الحداثة فالعالم الإسلامي يختلف عن غيره من الحضارات في وجه واحد مهم . فهو وحده قد ولد تكرارًا خلال الأعوام الأخيرة حركات أصولية مهمة ، ترفض لا السياسات الغربية فحسب . وإنما المبدأ الأكثر أساسية للحداثة . العلمانية نفسها . وبه بينما تجد شعوب آسيا وأمريكا اللاتينية ودول المعسكر الاشتراكي وأفريقيا الاستهلاكية الغربية مغرية ، وتود تقليدها ـ لو أنها فقط استطاعت

ذلك . فإن الأصوليين المسلمين يرون في هذه الاستهلاكية دليلاً
على الانحلال الغربي » ..

ويعترف « فوكوياما » [illegible] الاستعصاء الإسلامي على [illegible] ،
وتحدث [illegible] الإسلامية [illegible] الاستهلاكية [illegible] هي [illegible]
الحرب التي [illegible] على الإسلام [illegible]
الغرب بـ « الإرهاب » ! [illegible] « إن المسألة ليست ببساطة
حرباً على الإرهاب كما تظهر الحكومة الأمريكية بشكل مفهوم
[٢٠٠٢] وليست المسألة الحقيقية كما يحاول الكثير من
المسلمين – هي السياسة الخارجية الأمريكية في فلسطين ، أو
نحو العراق . إن الصراع الأساسي الذي نواجهه ، لسوء الحظ ،
أوسع بكثير ، وهو مهم ، ليس بالنسبة إلى مجموعة صغيرة من
الإرهابيين ، بل لمجموعة أكبر من الراديكاليين الإسلاميين ، ومن
المسلمين الذين يتجاوز انتماؤهم الديني جميع القيم الأساسية
الأخرى . إن الصراع الحالي ليس ـ ببساطة ـ معركة ضد
الإرهاب . ولكنه صراع ضد العقيدة الإسلامية الأصولية التي
تقف ضد الحداثة الغربية ... إنه يشكل تحدياً أيديولوجياً هو « في
بعض جوانبه » أكثر أساسية من الخطر الذي شكلته الشيوعية

[illegible] الإسلام نفسه ، فعلى

للمجتمع الإسلامي أن يقرر فيما إذا كان يريد أن يصل إلى وضع سلمي مع [illegible] أساسي حول دولة العلمانية [illegible] م (٢١ [illegible])

فهدف الحرب الصليبية الغربية المعلنة على الإسلام وأمته وحضارته التي تقودها أمريكا ليس [illegible] «[illegible]» [illegible] بالإرهاب.. وإنما [illegible] والأعمق هو [illegible] الإسلام على العلمانية [illegible] كما [illegible]

تاريخ الغرب العلماني في استخدام الصليبية ضد الإسلام (١)

ولقد كان هذا هو تاريخ الغرب العلماني في استخدام الصليبية سلاحًا في مشروعه الاستعماري ضد العالم الإسلامي [illegible] قدم المشروع الاستعماري الغربي

• الذي استخدم النصرانية الرومانية والبيزنطية لقهر النصرانية الشرقية، بعدة قرون قبل ظهور الإسلام، وقبل الفتوحات الإسلامية

• والذي استخدم الحملات الصليبية مدة قرنين من الزمان [٤٨٩ - ٦٩٠هـ ١٠٩٦ - ١٢٥٦م] لإعادة اختطاف الشرق من الإسلام

وفي هذه المرحلة [illegible] الصليبية قد [illegible] في [illegible]

(١) [illegible] ص ٢[illegible]

الغربية والسياسات الغربية والممارسات الغربية ومدى تفتت الغربية المفترض علمانيتها - في العقود الأخيرة ، لأسباب عديدة منها الصحوة الإسلامية التي أعادت الإسلام ليكون « العسكرية والأيديولوجية » التي واجه بها المسلمون الإمبريالية الغربية بعد سقوط الخيارات والنماذج الغربية في المجتمعات الإسلامية

وعن هذه الحقيقة المهمة حقيقة تزايد النزعة الدينية وتأثير الديني لدى المؤسسات السياسية الغربية - تقول مجلة [شئون دولية]

« إنه من الواضح أن الدين أصبح يقتحم الشئون الدولية بصورة متزايدة ، أو بالأحرى يعيد إدخال نفسه فيها

ويصعب أن تكون مصادفة أن الديمقراطيين المسيحيين في كل بلد أوربي موجودون على الدوام بين أشد أنصار الوحدة الأوربية حماسًا ، أو أن القادة القوميين الثلاثة الذين أرسوا أسس الاتحاد الأوربي الحالي . كونراد أديناور [١٨٧٦ ـ ١٩٦١ م] وألسيد دى جاسبري [١٨٨١ ـ ١٩٥٤ م] وروبرت سومان [١٨٨٦ ـ ١٩٦٣ م] ـ كانوا جميعهم من الديمقراطيين المسيحيين ، ومن الكاثوليك المتحمسين . إن هناك انطباعا قويا بأن الإشارات إلى المسيحية ـ في سياق دولي ـ قد تضاعفت في وسائل الإعلام الغربية . ولاشك أن السبب الرئيسي في هذا هو التغيرات التي

وقعت في الاتحاد السوفيتي وأوربا الشرقية. ففي بعض بلدان أوربا الشرقية لعبت الكنيسة دورًا مهمًا في إحداث التغيير السياسي بولندا بصورة واضحة. وألمانيا الشرقية بصورة غير متوقعة. بدرجة أكبر. وكذلك تشيكوسلوفاكيا إلى حد ما. وفي الاتحاد السوفيتي بدأ التغيير من أعلى. وعلى يد المثقفين العلمانيين. لكن دور المثقفين المسيحيين في مقاومة النظام. وتقدمهم لأدائه لم يكن بحال من الأحوال أمرًا تافهًا. والأمر لدي كان مدهشًا حقًا هو السرعة التي اتجه بها المجتمع والدولة على حد سواء إلى الكنيسة في بحث يائس عن شيء يملأ الفراغ الأخلاقي المروع الذي كشف عنه انهيار الإيديولوجية الشيوعية. وكان بهذه الأحداث تأثير مدهش على المواقف العربية. فبدلًا من الكتلة الشرقية اكتشف زملاء أوربيين يشاركونا ميراثنا الحضاري والسياسي.

وكان لابدَّ لأوربا. التي اعتادت أن تعرّف نفسها من خلال تحديد الآخر. أن تبحث عن آخر جديد يحلّ محلّ الاتحاد السوفيتي والمعسكر الشرقي بعدما انهارت أيديولوجيته. وكان هذا الآخر هو الإسلام. إنما في وقت يسود فيه ضياع قوي بتضاعف الإشارات إلى المسيحية في السياق الدولي».

هكذا حللت المجلة الأكاديمية الرصينة هذا المتغير الهام

متغير عودة العامل الديني إلى السياسات العربية من جديد وبصورة ملحوظة ومؤثرة ومتزايدة . بعد أن « كان المجتمع الدولي للقرن العشرين تسوده الثقافة العربية الحديثة ، وواحدة من سماتها العلمانية » (١) .

الخلاصة

وخلاصة هذا التحليل هي :

١. عودة العامل الديني إلى الدخول والبروز والفعل والتأثير في السياسات العربية .

٢. دور المسيحية والأحزاب المسيحية الديمقراطية في تأسيس الوحدة الأوربية

٣. دور الكنائس الأوربية في إسقاط الشيوعية ، وعودة أوربا الشرقية إلى الحضارة الغربية المسيحية اليهودية

٤. عودة الدين كي يصبح « معياراً » في تعريف أوربا لنفسها و « الآخر » .

٥. دور هذه العوامل والعنصر الديني في اختيار الغرب للإسلام عدواً أحله محل العدو الشيوعي أي عودة النزعة الصليبية من جديد

---

(١) [شؤون دولية] مصدر سابق

إلى السمة الدولية، وخاصة في المواجهة الغربية مع الإسلام

• ففي الحقبة الرومانية والبيزنطية تجلّت الوحدة بين «القيصرية» و«الكنيسة» في مواجهة الشرق ونصرانيته

• وفي الحقبة الصليبية – بالعصور الوسطى الأوروبية – توحد «أمراء الإقطاع الأوروبيون» مع «الكنيسة» و«البرجوازية التجارية» ضد الإسلام والشرق الإسلامي

• واليوم .. وعقب سقوط «الخطر الشيوعي الأحمر» وتوحد الغرب في إطار الحضارة المسيحية اليهودية، وإحلال الغرب الإمبريالي الإسلام وصحوته عدوًّا وخطرًا أخضر، تعود الوحدة لمؤسسات الهيمنة الغربية في المواجهة مع الإسلام. وفي مقدمة هذه المؤسسات «المؤسسات السياسية» و«الكنائس الغربية»

• وفي ضوء هذا المتغير، الذي يجب أن يأخذ حقه في التدبر والتحليل، نفهم الحديث عن وجوب جعل أوروبا «ناديًا مسيحيًا» مغلقًا في وجه تركيا المسلمة، وهو موقف يتبناه السياسي الفرنسي «جيسكار ديستان» واضع دستور الاتحاد الأوروبي.. ونفهم موقف الفاتيكان الرافض لدخول تركيا إلى هذا «النادي المسيحي»

• ونفهم، كذلك، تخلي العلمانية الفرنسية عن حيادها إزاء الأديان، لتقف – في مسألة الحجاب – ضد الشعائر الإسلامية على

وجه الخصوص ... ومنها إعلان بابا الفاتيكان بنديكتوس السادس عشر عن مخاوفه الثلاثة :

١ - تقلص المسيحيين الأوروبيين ديموجرافيًا.

٢ - وتحول الهجرات الإسلامية العربية والإفريقية محل المسيحيين الأوروبيين المنقرضين.

٣ - وتحول أوروبا إلى جزء من دار الإسلام في نهاية القرن الحادي والعشرين » !(١).

« ومنها اتحاد المؤسسات الغربية ، والجمعيات السياسية والدينية على التخويف من الإسلام ... مع تقلص ... الحروب على المسلمين في الغرب ، والتي تمثل التمييز العنصري ضدهم ... ومع حملات الإعلام والدعاية التي تشيع الكراهية ضد الإسلام والمسلمين ... والتي تمارسها المؤسسات السياسية الغربية ... تأتي تصريحات كبار الكرادلة المحرضة على الإسلام والمسلمين

« ويكرر الكاردينال الإيطالي « جاكومو بيفي » أسقف بولونيا ... دعوته إلى « استئصال المسلمين من أوروبا » !.

فصورة أوروبا والغرب التي يتطلعون إليها ... لا يمكن أن تكون متعددة الديانات والثقافات والحضارات .. « فإما أن تتحول أوروبا إلى مسيحية

(١) [illegible]

فورًا، وإلا ستكون إسلامية مؤكدًا»(١).

• ويكرر دينس «بوب جوبار» [illegible] المستشار ، ومستشار المجلس الفاتيكاني للثقافة بقوله: «إن الإسلام يشكل تحديًا بالنسبة لأوربا وللغرب عمومًا»(٢).

• والمونسنيور «جوزيبي برناردني» يقول – في حضرة بابا الفاتيكان: «إنّ العالم الإسلامي سبق أن بدأ يبسط سيطرته بفضل دولارات النفط، وهو يبني المساجد والمراكز الثقافية للمسلمين المهاجرين في الدول المسيحية، بما في ذلك روما عاصمة المسيحية، فكيف يمكننا ألا نرى في ذلك برنامجًا واضحًا للتوسع، وفتحًا جديدًا»(٣).

• والحكومات الغربية التي كانت حارسة محايدة بين الأديان غدت حاضنة لمهاجميها على الإسلام ورموزه ومقدساته، تحت ستار «حرية التعبير»! وبعد أن كانت شديدة الحذر عند صعود الأحزاب الفاشية الجديدة، رأيناها تفسح المجال للمظاهرات التي تقودها هذه الأحزاب الفاشية – في العديد من العواصم والمدن الأوربية

(١) صحيفة [العالم الإسلامي] مكة في ٦ - ١٠ - ٢٠٠٠م

(٢) صحيفة [الشرق الأوسط] لندن في [illegible] ١٩٩٩م

(٣) المرجع السابق في ١٣ - ١٠ - ١٩٩٩م

في سبتمبر سنة ٢٠٠٧م [illegible]

هكذا يتصاعد التحالف العلماني الصليبي العربي ضد الإسلام والمسلمين .. وتريد [illegible] في مواجهة الصحوة الإسلامية والصحوة الإسلامي [illegible] في مؤسسات عربية [illegible] وتسعى الإمبريالية الغربية – في سبيل استعمارها لتجديد [illegible] الإسلام [illegible] الإسلام والصحوة الإسلامية في الغرب والشرق [illegible] المسلمين [illegible] – أمة [illegible] ولا تحولين ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧] ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨] ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ۞ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦، ٣٧] صدق الله العظيم

⊠⊠⊠⊠

العلمانية بين الغرب والإسلام

نشأة العلمانية

مصطلح « العلمانية » ، هو ترجمة لما شاع ، بالغرب و المشرق

العربي للكلمة الإنجليزية SECULARISM بمعنى الدنيوي

و العالمي [illegible] والواقعي [illegible] من الدنيا والعالم والواقع [illegible] مقابل

« المقدس » أي الديني « الكهنوتي » المنزل من السماء ، و المحكم

المطلق ، و الثابت المقدس ، والمخترق الطبيعة ووسطها ، و الذي

قدس الدين قداسة الدين ، وثبّت متغيراتها – العلمية والقانونية

والاجتماعية – ثبات الدين . (١)

وإذا كان هذا هو معنى المصطلح ، في نشأته وملابساته الأوربية .

نزعة دنيوية ، ومذهب واقعي في تدبير العالم من [illegible] ، [illegible]

بشريعة من ورائه . فلقد كان قيام المصدر هو « العلمية » أو

« العالمانية » .. لكن صورته غير الملتبسة [illegible] – هي التي

قُدر لها الشيوع والانتشار .. والعلمانية ، كنزعة في تدبير العالم ،

وكمذهب في المرجعية الدنيوية لشئون العمران الإنساني ، لا يمكن

فهمها [illegible] ومن ثم فهم الموقف الإسلامي منها [illegible] بمعزل عن

---

(١) انظر [المعجم [illegible]] [illegible] طبعة القاهرة سنة [illegible] م

و [قاموس علم [illegible]] [illegible] طبعة القاهرة سنة [illegible] م

و د. محمد البهي [العلمانية والإسلام [illegible]] ص ٧ ، ٨ طبعة القاهرة

سنة ١٩٦٧ م

الملابسات الأوربية ، نشأتها في إطار الحضارة الغربية المسيحية ، بحدودها الإغريقية الفلسفية ، وتراثها الروماني القانوني ، والإضافة المسيحية لهذه الحدود وذلك التراث . وإذا كان التفصيل في هذه القضايا هو مما يخرج هذه الدراسة عن نطاقها ومقاصدها ، فإننا نكتفي بالإشارة إلى بعض القضايا في شيء من الإيجاز

لقد ظلت المسيحية ، منذ نشأتها وعبر قرون طويلة من حياتها في المجتمعات الأوربية ، دينًا لا دولة ، وشريعة محبة لا تقدم للمجتمع مرجعية قانونية ولا فلسفة للحكم ، ورسالة مكرسة لخلاص الروح ، تدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، ووقفت رسالة الكنيسة عند حدود المملكة السماوية ، لا شأن لها بسلطان الأرض وقوانين تنظيم الاجتماع البشري ، في السياسة والاجتماع والاقتصاد ، وعلومها ومعارفها .

وعبر هذه القرون ، حكمت العلاقة بين الكنيسة والدولة ، أي بين الدين والمجتمع - نظرية « السيفين » Theory of the Two Swords - أي السيف الروحي ، أو السلطة الدينية للكنيسة ، والسيف الزمني ، أو السلطة المدنية للدولة .

فلما حدث وتجاوزت الكنيسة حدود مملكة الروح ومملكة السماء ، فاغتصبت السلطة الزمنية أيضًا ، فضلًا عن احتكارها القداسة الدينية ، وثبتت متغيرات الاجتماع الإنساني ثبات الدين ، فتحجرت

للمجتمعات الأوروبية مرحلة الجمود والانحطاط وعصورها المظلمة. وسادت في تلك المرحلة نظرية «السيف الواحد» The Theory of One Sword أي السلطة الجامعة بين الديني والمدني، سواء أكانت «سلطة الأباطرة» أو سلطة الباباوات ويشركهم الملوك. وعرف هذا النظام، في تاريخ أوروبا، بنظرية «الحق الإلهي للملوك» Divine Right of the Kings.[1]

وفي مواجهة هذا النظام، ووفق الاختصاص الحضاري الذي أثمرته تصفيته - التي قدست الدولة وحكامها .. والمجتمعات الأوروبية ومجتمعاتها وعلومها - كانت «الثورة العلمانية» التي فتحت بها فلسفة التنوير الأوروبي، والتي أقامت قطيعة معرفية مع فلسفة الحكم الكهنوتي، وأسست النزعة العلمانية الحديثة على أنقاض التراث الأوروبي القديم وعلى عقلانية التنوير الأوروبي الحديث، التي أحلت «العقل» و«التجربة» محلَّ «الدين» و«اللاهوت».

لقد عادت «الثورة العلمانية» بالكنيسة إلى حدودها الأولى: خلاص الروح، ومملكة السماء، وجعل ما لقيصر لقيصر من دون الله! وجعل «العقل» و«التجربة»، دون «الدين» و«اللاهوت»، المرجع في تدبير شئون العمران الإنساني، أي عزل «السماء» عن «الأرض»

---

(١) انظر [موسوعة العلوم السياسية] مادة ((حق الحكم الإلهي)) طبعة جامعة الكويت سنة ١٩٩٤م.

انطلاقاً من فلسفة أن العالم مكتفٍ بذاته، تدبره الأسباب المخلوقة في ظواهره وقواه وطبيعته.. دونما حاجة إلى رعاية إلهية أو تدبير شرعي نازل مما وراء الطبيعة والعالم.

فالعلمانية هي التي تجعل المرجعية في تدبير العالم إنسانية خالصة، ومن داخل العالم، دونما تدخل من شريعة سماوية هي وحي من الله المفارق لهذا العالم.. ولقد عرفت العلمانية الأوربية غير التيار المادي الملحد تياراً مؤمناً بالله، مثلته فلاسفة من مثل هوبز HOBBES [illegible] ولوك Locke [illegible] ومن [illegible] وليبنتز Leibniz [illegible] وروسو Rousseau [illegible] وليسنج Lessing [illegible] الذي حاول التوفيق بين الإيمان بوجود إله خالق للعالم وبين العلمانية التي ترى العالم مكتفياً بذاته، فتحصر تدبير الاجتماع البشري في سلطة البشر المتحررة من شريعة الله.

وكان هذا التوفيق مؤسساً على التصور الأرسطي للعلاقة بين الذات الإلهية والعالم.. ففي التصور الأرسطي، الواحد، مفارق للعالم، والخالق له، لكنه قد أودع في العالم وطبيعته الأسباب التي تدبرهما تدبيراً ذاتياً دونما حاجة إلى تدخل إلهي، أو رعاية إلهية فيما بعد مرحلة الخلق «فالحركة توجد في الشيء بذاته وبداخله، لا من حيث أن شيئاً خارجياً هو الذي يحدث فيه هذه الحركة» والعناية الإلهية موقوفة على [illegible]»

ولا تدخل له في الأحداث الجزئية في العالم وصنعه "[1] فالعالم مكتف بذاته، بما ركبه من الأسباب المودعة فيه، وهو وحده مصدر المعرفة والحكمة، بقدرته المرهفة وتعقيله، والتدبير بذات مرجعيته إلى الإنسان بعقله وتجربته دون رعاية أو تدبير أو تدخل من السماء .. هكذا استبدلت العلمانية، في تأسيس "التنويرية"، على التصور الإسلامي لتصالح عقل الذات الإلهية، فهو مجرد خالق، وقع من خلق وانحصرت عنايته بذاته، دونما رعاية أو تدبير للمخلوقات .. كصانع الساعة، الذي أودع فيها أسباب عملها، دون حاجة لوجوده معها وهي تدور! .. وساعد العلمانية على الانتصار لهذه النزعة، التصور المسيحي لعلاقة الدين بالدولة، فهو تصور يدع ما لقيصر لقيصر، ويقف بالدين عند خلاص الروح ومملكة السماء، دون أن يقدم شريعة للمجتمع والدولة، الأمر الذي جعل الساحة خالية في [illegible] وفي المستوى الفكري "ثورة تصحيح دينية" وليس عدواناً على الدين!

وساعدها على ذلك أيضاً أن التراث الروماني في فلسفة التشريع والتقنين، قد حل [illegible] عبر الخصوصية الدينية والأخلاقية والشريعة السماوية، هي المعيار .. فكان الطريق إلى العلمانية [illegible] مفتوحاً أمام العلمانية، بتركيه هذا التراث!

(1) د. عبد الرحمن بدوي [موسوعة الفلسفة] مادة "فلسفة التنوير" ص ١٠٦ طبعة بيروت سنة ١٩٨٤ م.

هكذا نشأت العلمانية في سياق التنوير الوضعي الغربي، لتمثل عزل السماء عن الأرض، والتحرر من الاحتكام [illegible] من [illegible] وحدود الشريعة الإلهية، وحصر المرجعية في تدبير العالم في الإنسان، باعتباره السيد [illegible] في تدبير عالمه ودنياه.. فهي ثمرة من ثمرات عقلانية التنوير الوضعي، التي أحلت العقل والتجربة محل الله والدين، وهي قد قامت مع الدين في تدبير العالم .. قطيعة معرفية .. باعتباره وحدها قاعدة التنوير الغربي .. فلم يعد الإنسان يحتاج إلى العناية في [illegible] التنوير [illegible] التي قامت القطيعة الأبستمولوجية [المعرفية] بكسرها ما يتصل بين عنصرين من زوج متلازمين: عنصر الخلاصة اللاهوتية للقديس توما الأكويني، وعنصر الموسوعة الفلاسفة التنوير [illegible] أن [illegible] لكي يحيي [illegible] عنصر العقل وهيمنته [illegible] لاهوته [illegible] ويلاشي [illegible] وأصبح الحكم [illegible] الحكم الوضعي [illegible] الحكم الآخر [illegible] تجربته(1) [illegible] عزل السماء عن الأرض، [illegible] عن [illegible] وخلافة الإنسان في تدبير [illegible] [illegible]

(1) أميل بولا [illegible] "العلمانية [illegible]" [illegible] [illegible] سنة ١٩٨٧م [illegible] [illegible] سنة ١٤٢٣ هـ [illegible] ٢

وفود العلمانية إلينا في ركاب الغزوة الاستعمارية

وإذا كانت غزوة بونابرت [١٧٦٩ - ١٨٢١م] لمصر [١٢١٣هـ ١٧٩٨م] قد مثلت بداية الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة لوطن العروبة - قلب عالم الإسلام - بعد أن سبقت هذا الاستعمار حروب هذه الغزوة عمر أربعة قرون [١].

فإن هذه الغزوة قد تميزت عن سابقتها الصليبية [٤٨٩ - ٦٩٠هـ ١٠٩٦ - ١٢٩١م] باستهدافها احتلال العقل، واستبدال الفكر، وتغيير الهوية - مع احتلال الأرض، ونهب الثروة، واستعباد الإنسان -. فكانت العلمانية واحدة من الوافد الغربي في ركاب الغزاة.

وللمرة الأولى تترجم الكلمة الفرنسية laïque بكلمة «علماني» في المعجم الفرنسي العربي الذي صدر سنة ١٨٢٨م، والذي وضعه «لويس بقطر المصري» - الذي خدم جيش الاحتلال الفرنسي لمصر، ثم رحل معه، ليدرس العامية المصرية في مدارس باريس [١]. ترجمت «اللائكية» بالعلمانية، من «العلم» - نسبة إلى «العالم» باعتباره «الدنيا» المقابلة «للدين» [١].

---

(١) د. سيد أحمد فرج «العلماني والعلمانية» مجلة «المجتمع» الكويتية، عدد ... ص ١٠١ - ١١٠ - سنة ١٩٨٦م.

وفي كل موقع من بلاد الإسلام قامت فيه للاستعمار الغربي سلطة ودولة، أخذ هذا الاستعمار شيئًا فشيئًا يُحل شريعة العلمانية في تدبير الدولة وحكم المجتمع وسلطة القانون محل « الإسلامية »، ويروج القانون الوضعي عندئذٍ حيثما يعدم شريعة الإسلام وفقه معاملاتها.

• ففي الجزائر وتونس، أخذ الاستعمار الفرنسي في إحلال القانون الوضعي العلماني محل الشريعة الإسلامية وقوانينها وكانت مصر، بحكم سيطرة نفوذ الأجانب ... على هذا النحو القانوني بالوضع العلماني يحدث عهد ... [١٢٦١ - ١٣١٣هـ / ١٨٤٥ - ١٨٩٦م] فيقول: ... دولة من دول أوربا تدخل بلدًا شرقيًا باسم الاستيلاء، وإنما تدخل باسم الإصلاح وبث المدنية وتنادي أول دخولها بأنها لا تتعرض للدين ولا للعوائد. ثم تأخذ في تغيير الأساس شيئًا فشيئًا

كما تفعل فرنسا في الجزائر وتونس، حيث سنت لهم قانونًا فيه بعض مواد تخالف الشرع الإسلامي، بل تنسخ مقابلها من أحكامه، ونشرته في البلاد، واتخذت لتنفيذه قضاة ترتضيهم. ولما لم تجد معارضًا أحدثت تحويل كثيرًا من مواده إلى مواد ينكرها الإسلام، توسيعًا لنطاق النسخ الديني. ولم تلبث أن

جارياتها - [في مصر] - وأخذنا بقانون يشبهه»(١).

فالقانون العلماني يتم النسخ الديني، والمسخ لشريعة الإسلام!

ومع القانون العلماني – الوضعي [illegible] لا يعترف [illegible] بالشرع، ولا يحكم حقوق الإنسان بحقوق الله وحدوده [illegible] الغزوة الاستعمارية الغربية إلى بلاد الإسلام بمفهوم الحرية الإنسانية المتحررة من الضوابط الشرعية، والمؤسس على أن الإنسان هو سيد العالم ومرجع التدبير للعمران - وليس على المفهوم الإسلامي للاستخلاف، الذي يضبط حرية المخلوق بالشريعة الإلهية، التي هي معالم التدبير الإلهي للاجتماع الإنساني، وبنود عقد وعهد الاستخلاف الإلهي للإنسان...

وعن هذا المفهوم العلماني للحرية، الذي يقتضي [illegible] «بعدم تعرض أحد لأحد في أموره الخاصة» يقول [illegible] في نقده [illegible] وفي بيان [illegible] الإسلامي: «إن الحرية عبارة عن المطالبة بالحقوق، والوقوف عند الحدود. وهذا الذي نسمع به ونراه رجوع إلى البهيمية وخروج عن حد الإنسانية، إنها حرية مدنية يفر منها البهيم. ولئن كان ذلك سائغاً في أوربا، فإن لكل أمة عادات

(١) مجلة [الأستاذ] العدد [illegible] بتاريخ ٢٩ جمادى الثانية سنة ١٣١٠ هـ ١٧ يناير سنة ١٩٨٣ م

وروابط دينية أو بيئية. وهذه الإباحة لا تناسب أخلاق المسلمين ولا قواعدهم الدينية ولا عاداتهم. وهي لا توافق عوائد أهل الشرق ولا أديانهم. والقانون الحق هو الحافظ لحقوق الأمة من غير أن يحمي أو يغري بالجناية عليها بما يبيحه من الأحوال المحظورة عندها»[1]

بل إن تسلل القانون الوضعي الغربي، وحلوله محل [illegible] القضائية والتشريعية، قد سبق أحيانًا الاحتلال العسكري المباشر والسيطرة الاستعمارية السافرة، وذلك عندما [illegible] تزايد النفوذ الاستعماري في البلاد. [illegible] أصبحت الأجنبية فيها [illegible] فكان تسلله هذا تمهيدًا للاحتلال والاستعمار[1]

ففي مصر، على عهد الخديوي سعيد [١٢٣٧ - ١٢٧٩ هـ ١٨٢٢ - ١٨٦٣ م] صدرت «إرادة»[2] في ١٢ شعبان سنة ١٢٧٢ هـ ١٨ إبريل سنة ١٨٥٥ م. بإنشاء محكمة تجارية [مجلس تجار] مختلط من المصريين والأجانب، للقضاء في المنازعات التجارية التي يكون الأجانب طرفًا فيها»[2] وبهذا الاختراق للقانون الوضعي للمؤسسة القضائية المصرية، ومع تزايد النفوذ الأجنبي، أصبحت للأجانب أنفسهم في عضوية

---

(١) [illegible] ص ٤٣٥ [illegible]

(٢) أمين سامي باشا [تقويم النيل] [illegible] ص ١٦٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٣٦ م.

محكمة [قومسيون مصر] . ثلاثة مصريون ، وأربعة أجانب . (١)

وبعد أن تعددت « المحاكم القنصلية » التي يقضي فيها قضاة أجانب بالقانون الأجنبي ، في المنازعات التي يكون أحد طرفيها أجنبيًا ، حتى بلغت ، في ظل الامتيازات الأجنبية ، سبع عشرة محكمة . « نظمت هذه الفوضى » القانونية والقضائية سنة ١٨٧٥م بإنشاء « المحاكم المختلطة » ، وهي التي تقضي في المنازعات بين المصريين والأجانب « بالقانون المدني » العلماني . ولغتها الفرنسية ، وأغلبية قضاتها أجانب ، ورئاستها للأجانب ... وفي دوائرها الجزئية ، كان القاضي الواحد ، ينفرد ... القاضي الأجنبي بالحكم ، وكذلك في دوائر الأمور المستعجلة ، والوقتية ، والبيوع ، وتوزيع التركات ... (٢)

فتم الاختراق العلماني لمؤسستي « القضاء » و « التشريع » معًا . إذ « لم يقتصر النظام المختلط على إنشاء قضاء أجنبي ينفذ الأحكام على الرعايا الوطنيين وعلى حكومة البلاد ، بل خوّل الدول الأجنبية حق التدخل في التشريع الذي يسري على رعاياها . » (٣)

---

(١) عبد الرحمن الرافعي [عصر إسماعيل] ج ١ ص [illegible] طبعة القاهرة سنة ١٩٤٨ م

(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٤٢ – ٢٤٣

(٣) المرجع السابق . ج ٢ ص ٢٤٩

بل إن قاضياً هولندياً [illegible] بالمحاكم المختلطة « فان

بملن » Von Bemmelen قد وصف القضاء المختلط بأنه « وليد

الاغتصاب الواقع من الأقوياء على حقوق الضعفاء »، ووصف

المحاكم المختلطة وكل قضاتها بأنها « ركن قوي من أركان

السيطرة الأوربية على مصر » [1]

ونجد في [illegible]

المصريين [illegible] ١٢١٦ –

١٢٩٠ هـ / ١٨٠١ – ١٨٧٣ م [illegible] ٢٠٣ هـ ٨٦٩ م

عن [illegible] الإسلامية [illegible]

[illegible] والمرافعات بين الأهالي والأجانب [illegible]

[illegible] وعطف على هذا [illegible]

« [illegible] مع أن المعاملات الفقهية لو انتظمت وجرى عليها العمل

لما أخلّت بالحقوق، بتوفيقها على الوقت والحالة [illegible] ومن أمعن

النظر في كتب الفقه الإسلامية ظهر له أنها لا تخلو من تنظيم

الوسائل النافعة من المنافع العمومية. حيث بوبوا للمعاملات

الشرعية أبواباً مستوعبة للأحكام التجارية، كالشركة،

---

(١) المرجع [illegible] ج ٢ ص ٢٠٣ – ٢٦٩ [illegible]

ج ١ ص ١١٨، ٢٠٥ طبعة سنة ١٨٨٢

والمضاربة، والقرض، والمخابرة، والعارية، والصلح، وغير ذلك. إن بحر الشريعة الغراء على تفرع مشارعه، لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها بالسقي والري، ولم تخرج الأحكام السياسية عن المذاهب الشرعية، لأنها أصل، وجميع مذاهب السياسات عنها بمنزلة الفرع..»[1].

ثم تجد [illegible] صيحة التحذير التي أطلقها الطهطاوي، في مواجهة الاختراق العلماني لمؤسسات القضائية والتشريعية [illegible] بل [illegible] لم [illegible] سوى الاختراق [illegible] عندما احتل [illegible] مصر [١٢٩٩ هـ - ١٨٨٢ م] [illegible] في [illegible] عهد الاحتلال قانون [illegible] في [illegible] الأهلي المصري في ٢٤ جمادى الثاني سنة ١٣٠٠ هـ، مايو سنة ١٨٨٣ م صدر القانون المدني، والقانون التجاري، وقانون التجارة البحري، وقانون المرافعات [illegible] على حالها لدى كتب [illegible] في المحاكم المختلطة - وصدر قانون العقوبات، وتحقيق الجنايات [illegible] بعض التعديلات [illegible] ١٣ نوفمبر سنة ١٨٨٣ م حتى كتب

(1) [الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي] ج [illegible] ص ٥٤٤، ٣٧٤ [illegible] وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م.

[illegible] « العلمانية » في [illegible]

وإذا كان الطهطاوي قد أشار إلى أن تقنين مبادئ الشريعة الإسلامية وفقه معاملاتها موقوف على [illegible]

الإسلامي، في مواجهة الاختراق [illegible] [illegible]

محمد قدري باشا [١٢٣١-١٣٠٦هـ [illegible]م] [illegible]

في تقنين [illegible] الإسلامي [illegible] الإسلامي

١ - كتاب [مرشد الحيران في معرفة أحوال الإنسان] في المعاملات الشرعية

٢ - وكتاب [قانون العدل والإنصاف للقضاء على مشكلات الأوقاف]

٣ - وكتاب [تطبيق ما وجد في القانون المدني موافقاً لمذهب أبي حنيفة].

٤ - وكتاب [الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية] (٢)

[illegible] الإسلامية [illegible]

---

(١) [illegible]

(٢) [illegible]

غربية محل القانون ومؤسسات القضاء والتشريع في البلاد.

وعلى هذا الدرب ، الذي حفظته الصحوة « الإصلاح بالإسلام » وتجديد الدنيا بتجديد الدين ، سار الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] ، فتصدى لنقد مزاعم المدنية الغربية الأوربية « مدنية الذهب والفضة »(١)

ووصف المصري الإسلام بأنه « ظهر ، لا روحيا مجردا ، ولا جسدانيا جامدا ، بل إنسانيا وسطا بين ذلك ، آخذا من كلا القبيلين بنصيب ، فتوفر له من ملاءمة الفطرة البشرية ما لم يتوفر لغيره . وصار المدرسة الأولى التي يرقى فيها السالكون على سلم المدنية . ولذلك جمع بين الدين والشرع فلم يعرف ما يسميه الإفرنج « تيوكراتيك » ، أي سلطان إلهي . وفي ذات الوقت لم يدع ما لقيصر لقيصر ، بل كان من شأنه أن يكون كمالا للشخص وألفة في البيت ، ونظاما للممالك ، امتازت به الأمم التي دخلت فيه عن سواها ممن لم يدخل فيه »(٢)

ثم حكم بأن سبيل الدين لمريد الإصلاح في المسلمين سبيل لا

---

(١) [الأعمال الكاملة] ج ٣ / ٥ [illegible] سنة ١٩٩٤ م

(٢) المصدر السابق . ج ٣ ص ٢٨٧ [illegible]

ممنوحة عنها. فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين -[أي العلمانية]- هو بذر غير صالح للتربة، لا ينبت، ويضيع تعبه، ويخيب سعيه.. فما لم تكن المعارف والآداب مبنية على أصول الدين فلا أثر لها في النفوس.. وإذا كان الدين كافلاً بتهذيب الأخلاق، وصلاح الأعمال، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهله من الثقة فيه ما ليس لهم في غيره، وهو حاضر لديهم، والعناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام لهم به، فلم العدول عنه إلى غيره؟!..»[1].

لقد صنعت مدرسة الإحياء والتجديد الديني -التي قادها جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م] والتي بدأ معها محمد عبده - وحملت رسالتها [المنار] الشيخ رشيد رضا [١٢٨٢ - ١٣٥٤ هـ ١٨٦٥ - ١٩٣٥ م] على امتداد نصف قرن- صنعت رسالة المقاومة للاختراق العلماني، التي حملتها -فيما بعد- جماعات اليقظة الإسلامية وحركاتها، تلك التي نقلت هذه المقاومة -بعد سقوط الخلافة [١٣٤٢ هـ ١٩٢٤ م]- من إطار «الصفوة» إلى إطار «الجماهير».

* * * *

(١) المصدر السابق. ج ٣ ص ١٠٩، ٣٢١.

الأصول الإسلامية لرفض العلمانية

وإذا كان التصور الإسلامي يتفق مع ما يدعو إليه هو [illegible]

[illegible] والمتابعة و[illegible] الإنساني

وهو التصور الذي [illegible] التصور الحضاري الذي [illegible]

[illegible]

[illegible] تحقيق

[illegible] الأخلاقيات [illegible]

أو القيم الإيمانية أو السعادة الأخروية - ..

وإذا كانت هذه التصورات والمعتقدات في الموروث الحضاري

الغربي، [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] الإنسان في

[illegible]

التصور الإسلامي يتفق مع ما يدعو إليه، [illegible]

[illegible]

من القيم الإيمانية و[illegible]

وإذا كان هذا هو الحال بالنسبة في النموذج الحضاري الغربي

إن أمرها ليس كذلك في السياق الإسلامي.

فالتصور الإسلامي لنطاق عمل الذات الإلهية يتعدى حدود الخلق للمخلوقات إلى حيث يكون الله، سبحانه وتعالى، أيضًا الراعي والمدبر لكل عوالم وأمور وعمران المخلوقات.

لقد سفَّه القرآن الكريم التصور الوثني الجاهلي ـ الشبيه بالتصور الأرسطي ـ لنطاق عمل الذات الإلهية، فهو في كلتيهما مجرد خالق، بينما التدبير للعالم والعمران موكول ـ في الأرسطية ـ إلى الأسباب والأسباب المودعة في الطبيعة وظواهرها ـ وهو ـ في الوثنية الجاهلية ـ موكول إلى الشركاء والأصنام والطواغيت.

سفه القرآن الكريم هذا التصور عندما قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨]. فجعْل الخلق لله، والتدبير لغير الله تصور جاهلي مرفوض ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦]

فهذه القسمة ـ الشبيهة بالمفهوم العلماني تشعر [illegible] عنه و توصي للجميع ؟! ـ هي سوء حكم المحللين بمنهجهم الغربي وبرفضهم التصور الإسلامي المطلق عمل الذات الإلهية. وفي مقابل ذلك يقدم الإسلام تصوره المطلق عمل الذات الإلهية خالق كل شيء، ومدبر كل أمر، حتى ما هو مقدور للإنسان، وداخل في نطاق قدرته وإرادته وفعله هو فيه حقيقة الله سبحانه وتعالى، يدبره الإنسان بإرادة إلهية وتكليف شرعي كحقيقة الله مدبره بشريعته التي تمثل بنود عقد وعهد الاستخلاف، وكحقيقة لسنة الوجود. ومثل كحقيقة لهذا الوجود فإنه في التصور الإسلامي الخلق والتدبير حقيقة ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (يونس: ٣)، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: ٥٤)، ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (طه: ٤٩، ٥٠)، فليس التصور الإسلامي المطلق عمل الذات الإلهية الذي يحدد نطاق عمل الله في الخلق وحده، فالخلق والطبيعة والعلم والاجتماع والإنسان من عمله وصنعه وتدبيره الإلهي وإرادته الإلهية هو الموجودات [illegible] ولكن شيء، في هذا التصور الإسلامي، هو لله، حتى ما هو للإنسان فهو

له بحكم الاستخلاف و[illegible] ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]. ولكي [illegible] وحدها معبرة عن إيمان المسلم بالحضور والتدبير الإلهي في كل شيء.. حتى لتبلغ الحرية [illegible] العبودية لله؟! .. لقد [illegible]

[illegible] في [illegible] الأرض [illegible] في الأمر [illegible] [illegible] قوامة الدين وصناعة العمران [illegible] ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨] ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

هكذا يقف التصور الإسلامي [illegible] الإجابة [illegible] على العلمانية [illegible] في قلب المسلم [illegible] مدبر لكل شيء [illegible] الأرض وتحرير العمران الإنساني من [illegible] حدود [illegible]

وكما [illegible] عن [illegible] في

التصور الحق لعمل الذات الإلهية، ومن ثم في مكانة الإنسان في هذا الوجود. كما تمثل المعرفة الفلسفية التشريع في النسق القانوني الإسلامي سواء في مبادئ الشريعة الإسلامية وقواعدها ومقاصدها التي هي «الوضع الإلهي» - أو في فقه المعاملات الذي هو اجتهاد الفقهاء المسلمين المحكوم بمبادئ الشريعة وقواعدها وحدودها ومقاصدها - تمثل فلسفة الإسلام في التشريع عندما ربطت «الفقه» بـ «الأخلاق» و«المصلحة» بـ «المقاصد الشرعية» و«السعادة الدنيا» بـ «النجاة يوم الدين». فأعطت هذه الفلسفة التشريعية الإسلامية التفريق بين القانون الوضعي العلماني المهيمنة وكذلك تميزه عن النسق التشريعي الذي يحكم مجتمعات الأمة في ظل سيادة الحاكمية للوضع الإلهي بحدود الشريعة ومبادئها وقواعدها ومقاصدها. فالمصلحة التي يعتد بها القانون الإسلامي هي «المصلحة الشرعية المعتبرة»، وليست مطلق «المصلحة» و«المنفعة» التي يراها العقل الإنساني حسب ما تمليه الأهواء والشهوة أو منطق المنفعة، والمعايير الدنيوية الخالصة البحتة، ذلك لأن المسلم لا يخلص لربه «صلاته» و«نسكه» فقط، وإنما يخلص له، مع الصلاة والنسك، جماع المحيا والممات ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَ

أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام ـ ١٦٢ ، ١٦٣] .

وهذه الحقيقة من حقائق تميز فلسفة التشريع والتقنين الإسلامية عن غيرها الوضعية والغربية ، هي مما أجمع عليه أهل العلم ، مسلمين وغير مسلمين . ويكفي أن نشير إلى شهادة مستشرق حجة في القانون الغربي العلماني وفي الفقه الإسلامي ، هو « دافيد سانتيلانا » David de Santillana [١٨٤٥ ـ ١٩٣١ م] الذي يقول عن فلسفة التشريع في القانون الوضعي الغربي : « إن معنى الفقه والقانون بالنسبة إلى الأسلاف مجموعة من القواعد تستند إلى أقوال الشعب ، إما بالتراضي أو عن طريق ممثليه ، وسلطته مستمدة من الإرادة والإدراك والأخلاق للبشر وعاداتهم .

فهو قانون « دنيوي » أي « علماني » خالص بطبيعته » .

ويستطرد « سانتيلانا » مقررًا هذه الفلسفة المغايرة للفلسفة الإسلامية في التشريع ، فيقول : « إلا أن التفسير الإسلامي للقانون هو خلاف ذلك . . . فالمحصول للقانون الإسلامي هو واجب اجتماعي وفرض ديني في الوقت نفسه ، ومن ينتهك حرمته لا يأثم بخرق النظام الاجتماعي فقط ، بل يقترف خطيئة دينية أيضًا . فالنظام العلماني والديني ، والقانون والأخلاق ، هما شكلان لا انفكاك بينهما لتلك الإرادة التي تستمد منها المجتمع الإسلامي وجوده وتعاليمه ،

فكل مسألة قانونية إنما هي مسألة ضمير، وبهذه الصفة الأخلاقية يسود القانون فتوحد بين القواعد القانونية والتعاليم الأخلاقية توحيداً تاماً والأخلاق والآداب، في كل مسألة، ترسم حدود القانون فالشريعة الإسلامية شريعة دينية تغاير الفكرة أصلاً»[1]

وذات الحقيقة يؤكد عليها المستشرق الفرنسي [illegible] الذي ينبه على تميز القانون الإسلامي عن القانون الوضعي العلماني في المصدر وفي المقاصد فيقول: «ومن المفيد أن نذكر فرقاً جوهرياً بين الشريعة الإسلامية والشرائع الأوربية الحديثة، سواء في مصدر كل منهما أو في أهدافهما النهائية. فالمصدر للقانون في الديمقراطية الغربية هو إرادة الشعب، وهدفه تنظيم وتحسين حال المجتمع، أما الإسلام، فالقانون صادر عن الله، وبهذا فإنه يصير الهدف الأسمى الذي ينشده المؤمن هو الحصول على القرب إلى الله، باحترام الوحي والتقيد به. فالسلطة في الإسلام تفرض فعلاً من المعايير الأخلاقية. بينما نسمح في الطابع الغربي أن يختار الناس المعايير حسب الاحتياجات والرغبات السائدة في عصرهم»[2]

---

(1) شاخت: [القانون والمجتمع] بحث في كتاب [تراث الإسلام] ص ٤٢٨، ٤٣١. ترجمة جرجيس فتح الله طبعة بيروت سنة ١٩٧٢

(2) د. محمد عبد الجواد [الإسلام في مكة الحديث] [illegible] ص ٨٢ ـ ٨٣ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣ م

وهكذا تحول فلسفة السلطة في المشروع الإسلامي بين المجتمع وبين قيام [illegible] الوضعي العلماني كما تحول [illegible] الإسلامي [illegible] [illegible] إلهية. ومكذا [illegible] في [illegible] بين المجتمع وبين قيام [illegible] [illegible] وتشكيلاً.

* * *

ولأن هذه هي حقيقة تميز النسق الفكري الإسلامي - المنطلق من [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الإسلامية لانفلات «الدولة» من [illegible] ولتحرر «المجتمع» من «[illegible]» [illegible] في [illegible] الإسلامي من [illegible] [illegible] الوافدة إلينا في ركاب الغزوة الاستعمارية الحديثة.

[illegible] الدستوري، الذي [illegible] [illegible] ليس مجرد تراضٍ بين «المحكومين» و«[illegible]» كما هو الحال في [illegible] [illegible] الوضعي [illegible] في هذا [illegible] الدستوري، [illegible] يكون إسلاميًا، من أن يكون [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الوحي الإلهي [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الدستوري [illegible] [illegible] [illegible] شرعي. [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] في [illegible] ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ

إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ٥٨ – ٦٠].

١ – فعلى ولاة الأمر أداء الأمانات إلى أهلها والحكم بالعدل بين الناس.

٢ – وعلى [illegible] الطاعة للمؤمنين.

٣ – وطاعة المحكومين لأولي الأمر تابعة لطاعتهم لله وللرسول، أي للكتاب والسنة.

٤ – وشرط تحقق واكتمال الإيمان الديني بالله وباليوم الآخر أن تكون المرجعية عند التعاقد الدستوري هي الكتاب والسنة، وإلا كان هذا الإيمان زعما وادعاء، لأنه إن لم تكن المرجعية في التنازع لله والرسول، فهي للطاغوت!.

هكذا حسم القرآن المرجعية الإسلامية للدولة الإسلامية.

وعندما صاغ رسول الله ﷺ هذا المعنى القرآني للمرجعية الدينية في العقد الدستوري على إقامة الدولة – الصحيفة «الوثيقة» في أول دستور لأول دولة إسلامية – في «الصحيفة» التي مثلت دستور دولة

المدينة نصت على أن [illegible] وما كان بين أهل هذه الصحيفة من تشاجر يخشى فساده، فمرده إلى الله وإلى محمد [illegible] (١)

وأكد ذلك الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه في أول خطبة له عقب اختياره وبيعته بالخلافة، فقال: « **أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم** » فمع الربط بين الإسلامية والدولة [illegible] المرجعية الدينية شرط قيام واستمرار [illegible] الدستوري على القائمين [illegible] في التجربة التاريخية – التي غلب عليها المسلمون – مع هذا الربط في الحكمة ونصوص هذه المحاولة التي ميزت دولة الإسلام عن كثير من الدول التي عرفتها كثير من الأنساق الفكرية الأخرى.

لقد عرف التاريخ الإنساني:

١- دول الاستبداد، التي تحكم بالهوى والشهوة والقوة.

٢- ودول الكهانة الدينية، والعصمة المقدسة، والحكم بالحق الإلهي [illegible] رغم الحكم نيابة عن السماء، [illegible] الأمة من [illegible]

٣- ودول السياسة العقلانية - ومنها الدول العلمانية - التي يدير حكامها مجتمعاتها بسياسة العقل والمصلحة المتحررة من المرجعية الدينية.

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ص ٢ [illegible] جمعها وحققها د. محمد حميد الله حيدر آبادي. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦ م.

ويعبر عن هذا النمط من الدولة، ينوب فيها الحكام عن الأمة، مستقلين عن الدين والشريعة الإلهية من مرجعية السياسة والتدبير.

٤ـ أما الدولة الإسلامية، فإنها نمط متميز وفريد.. فهي إسلامية المرجعية، ومدنية النظم، تقاس إسلاميتها بمدى تحقيقها للمبادئ والمقاصد الشرعية.. وفيها تجتمع المرجعية الدينية ـ سيادة الشريعة ـ وسلطة الأمة ـ المستخلفة لله ـ ونيابة الدولة عن الأمة وبذلك تبرأ من سلبيات دول الكهانة الدينية والدول العلمانية جميعًا.

وكما سنقرأ هذا التمييز للدولة الإسلامية في نصوص النبي.. وفي دولة النبوة والخلافة الراشدة.. فإننا سنقرأ كذلك في الفكر الإسلامي، السابق على ظهور العلمانية الغربية، وعلى عصر اختراقها للعقل الإسلامي، وعلى صفحات فكرنا الإسلامي الحديث بعد الاختراق.

ورحمه الله ابن خلدون [٧٣٢ ـ ٨٠٨ هـ ١٣٣٢ ـ ١٤٠٦ م] فيلسوف العمران الإسلامي والإنساني الذي صاغ كل ذلك، في دقة ووضوح، وهو يتحدث عن أنواع الحكم والسياسات، فقال: «.. ولما كانت حقيقة الملك أنه الاجتماع الضروري للبشر وجب أن يُرجع في ذلك إلى قوانين سياسية مفروضة يسلمها الكافة وينقادون إلى أحكامها.

فإذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة

وبصائرهم كانت سياسة عقلية.

وإذا كانت مفروضة من الله بشارع يقررها ويشرعها، كانت سياسة دينية نافعة في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وذلك أن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط فالمقصود بهم إنما هو دينهم المفضي بهم إلى السعادة في آخرتهم، فجاءت الشرائع بحملهم على ذلك في جميع أحوالهم من عبادة ومعاملة، حتى في الملك الذي هو طبيعي للاجتماع الإنساني، فأجرته على منهاج الدين ليكون الكل محوطاً بنظر الشارع. فما كان من الملك بمقتضى القهر والتغلب فجور وعدوان ومذموم عند الشارع، كما هو مقتضى الحكمة السياسية. وما كان منه بمقتضى السياسة وأحكامها فمذموم أيضاً، لأنه نظر بغير نور الله ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، لأن الشارع أعلم بمصالح الكافة فيما هو مغيب عنهم من أمور آخرتهم، وأعمال البشر كلها عائدة عليهم في معادهم، من ملك أو غيره. وأحكام السياسة إنما تطلع على مصالح الدنيا فقط ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الروم: ٧] ومقصود الشارع بالناس صلاح آخرتهم، فوجب بمقتضى الشرائع حمل الكافة على الأحكام الشرعية في أحوال دنياهم وآخرتهم، وكان هذا الحكم لأهل الشريعة وهم الأنبياء ومن قام فيه مقامهم، وهم الخلفاء.

فقد تبين لك من ذلك معنى الخلافة، وأن:

١ـ الملك الطبيعي: هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة.

٢ـ والسياسي: هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار.

٣ـ والخلافة: هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة. فهي، في الحقيقة، خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به(١).

فالدولة العلمانية هي التي تسوس المجتمع بمقتضى السياسة العقلية التي تقصد إلى تحقيق المصالح الدنيوية وحدها..

بينما الدولة الإسلامية، هي التي تنطلق من الشرع، لتحقيق صلاح الدنيا والآخرة جميعاً.. دون أن تلغي العقل، بل تجعل العقل محكوماً بالشرع.. بينما الدولة الإسلامية تنتصر [illegible] بالعقل إلى الشرع.. وكما يقول الإمام الغزالي [٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ ١٠٥٨ ـ ١١١١ م]: «فإن العقل مع الشرع نور على نور»(٢).

• • •

(١) [المقدمة] ص ١٥٠، ١٥١. طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ.

(٢) [الاقتصاد في الاعتقاد] ص ٣ طبعة القاهرة، مكتبة محمد علي صبيح. بدون تاريخ.

تلك هي «العلمانية»: التوجه.. والنشأة.. والملابسات..

وهكذا كانت وفودها إلى عالم الإسلام، في ركاب الغزوة الاستعمارية الحديثة.. واختراقها لمؤسسات القضاء والتشريع في بلادنا..

وهذا هو موقف الإسلام والفكر الإسلامي منها، سواء في اجتهادات تيار الإحياء والتجديد الحديث.. أو في الأصول والمصنفات الإسلامية.. أو في بدائع الفكر الإسلامي الوسيط..

المتغربون... العلمانيون

أما الذين انبهروا من مثقفينا المحدثين بالعلمانية الغربية، فلقد دعوا إلى سلوك طريقها في نهضتنا، كما حدث للغربيين في نهضتهم.. وقالوا عن علاقة الدين بتدبير الدولة والمجتمع والعمران:

«يا بعد ما بين السياسة والدين..»(1)

و«إن السياسة شيء والدين شيء آخر.. وإن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساسًا للوحدة السياسية ولا قوامًا لتكوين الأوطان»(2). فلقد كانوا هم الذين نظروا إلى الإسلام بمنظار غربيّ. فنظروا في علاقة الدين بالدولة والسياسة بين الإسلام والنصرانية.. كما نظروا إلى تراث الحضارتين.. [illegible] شرقي

(1) علي عبد الرازق [الإسلام وأصول الحكم] ص [illegible] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥م.

(2) د. طه حسين [مستقبل الثقافة في مصر] ج ١ ص [illegible] طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨م.

والمسلم » لدى أتباع هذا التيار وصنيع عقله بالحضارة ، بالفكر غربي . ورأوا الخلافة الإسلامية « كهنوتية مستبدة تحكم بالحق الإلهي المقدس » ، ورأوا في عقل المسلم عقلاً يونانياً ، منذ القدم ، ويقصد تدين بالإسلام ، لأن القرآن عندهم كالإنجيل ، والإسلام عندهم كالنصرانية ، ومحمد ﷺ عندهم كالمسيح . كان كالمصلحين من رجل ، لا شأن له بسياسة دولة أو تدبير الاجتماع أو شؤون العمران ؟

فقد « صُرفت » عقولهم في « مصانع الفكر الغربي » ، فقالوا :

إن العقل الشرقي هو كالعقل الأوربي ـ مرده إلى عناصر ثلاثة « حضارة اليونان وما فيها من أدب وفلسفة وفن

وحضارة الرومان وما فيها من سياسة وفقه .

والمسيحية وما فيها من دعوة إلى الخير وحث على الإحسان »

وكما لم يغير الإنجيل من الطابع اليوناني للعقل الأوربي فكذلك القرآن ، لم يغير من الطابع اليوناني للعقل الشرقي ، لأن القرآن إنما جاء متمماً ومصدقاً لما في الإنجيل [1] . وإن الحضارة العربية والحضارة الفرنسية يقومان على أساس واحد ، هو في نهاية الأمر الحضارة اليونانية اللاتينية [2] » .

---

(١) المرجع السابق . ج١ ص ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ .

(٢) د. طه حسين [من الشاطئ الآخر] الثقافة الفرنسية في الحضارة والثقافة =

لقد شوهت المناهج الغربية رؤاهم ، وزيفت وعيهم ، فرأوا إسلامنا نصرانية .. وخلافتنا كهانة .. وقرآننا إنجيلاً .. وشريعتنا قانونًا رومانيًا .. ومن ثم رأوا « الحلَ العلمانيّ » هو طريقنا إلى النهوض ، كما كان حاله في سياق النهضة الأوربية الحديثة .

وإذا كان هذا « التغرب » أمرًا قابلاً « للتفسير » ، دون « التبرير » .. فإن الأمر الذي يبلغ في الغرابة حد « الكارثة » هو الموقع الذي قادت إليه العلمانية بعضًا من مثقفينا الذين تمذهبوا بمذهبها .. موقع التبعية للحضارة الغربية الغازية ، والولاء للمركزية الغربية العنصرية .. بل وإعلان التسليم والاستسلام لإرادة الغرب في استلابنا واحتوائنا وإلحاقنا بنموذجه الحضاريّ « في الإدارة .. والحكم .. والتشريع » .. وإلا فماذا تعنيه كلمات الدكتور طه حسين [١٣٠٦ - ١٣٩٣هـ ١٨٨٩ - ١٩٧٣ م] : « **لقد التزمنا أمام أوربا أن نذهب ونسلك مذهبها في الحكم ، ونسير سيرتها في الإدارة ، ونسلم طريقها في التشريع . التزمنا هذا كله أمام أوربا . وهل كان إمضاء معاهدة الاستقلال - [سنة ١٩٣٦ م] - ومعاهدة إلغاء الامتيازات - [سنة ١٩٣٨ م] - إلا التزامًا صريحًا قاطعًا أمام العالم المتحضر بأننا**

= بعد وفاته - جمعها وترجمها : عبد الرشيد الصادق المحمودي . ص ١٩١ ، ١٩٢ . طبعة بيروت سنة ١٩٩٠ م .

سنسير سيرة الأوربيين في الحكم والإدارة والتشريع ؟ » [١] .

إن هذا « الاعتراف » العلماني « بالالتزام » بما ألزمنا به الغرب ، من أن « نسير سيرة الأوربيين في الحكم والإدارة والتشريع » .. ينقل قضية تبني العلمانية في بلادنا إلى مستوى آخر .. فالقضية تتجاوز أحيانًا دائرة الاختلاف في الفكر ، لتصب - بوعي أو بغير وعي - في خانة التفريط في الاستقلال ؟ ! .. وإذا كان الدكتور طه حسين قد تجاوز هذا الانبهار بالغرب ، والالتزام بما سعت أوربا إلى إلزامنا به [٢] .. فإن كلماته هذه تذكرنا بكلمات موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام جمال الدين الأفغاني ، التي قال فيها : « لقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة ، المنتحلين أطوار غيرها ، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها .. وطلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات ، يمهدون لهم السبيل ، ويفتحون الأبواب ، ثم يثبتون أقدامهم » [٣] ؟!

فإسلامية الدولة .. وإسلامية القانون ، فضلاً عن أنهما من فرائض الإسلام ، فإنهما من معالم الاستقلال الحضاريّ للأمة الإسلامية ولديار الإسلام .

---

(١) [مستقبل الثقافة في مصر] ج ١ ص ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) انظر كتابنا [الإسلام والسياسة] ص ١١٨ - ١٣١ . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣ م .

(٣) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ١٩٦ ، ١٩٧ . دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م .

موضوعات الكتاب

هذا الكتاب

إن الدعوة إلى الإسلام هي دعوة للإيمان بكل النبوات والرسالات.
فنحن عندما ندعو اليهودي إلى الإسلام، فإنما ندعوه إلى الصعود على سلم التدين، وإضافة الإيمان بالنصرانية وبالإسلام إلى إيمانه باليهودية ومقدساتها
ونحن عندما ندعو النصراني إلى الإسلام، فإنما ندعوه إلى أن يضيف الإيمان الإسلامي إلى إيمانه باليهودية والنصرانية
فالدعوة إلى الإسلام هي دعوة إلى كمال الدين والشرائع التي تفرعت من ملة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام
وعلى العكس من ذلك التهويد والتنصير
فالنصراني الذي يرتد إلى اليهودية إنما يكفر بالنصرانية ومقدساتها
والمسلم الذي يرتد إلى النصرانية إنما يكفر بالإسلام وبرسوله.
وهكذا يكون الفارق بين الإضافة والصعود .. وبين النقص والنكوص
وصدق الله العظيم: ﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور﴾.

د. محمد عمارة